بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمدا يبلغ رضاه، وأشهد ألا إلـــه إلا الله، وأن محمدا رسول الله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وكل من والاه. اللهم آمين.

وبعد:

فإن البشرية المعذبة التائهة في مسيس الحاجة إلى هدى النبي (ﷺ) قـــراءة واستلهاما وتدبرا وتطبيقا وعملا، فيأخذها هذا الهدى بعيدا عن متاهات الـــضلال والحيرة والخبط والعشواء، إلى صراط الله المستقيم وهديـــه (ﷺ) المنيـــر؛ لأن هذه السنة الطاهرة المطهرة هي الصورة التطبيقية والواقعية لكل ماجـــاء فـــي القرآن الكريم، فهي الشارحة لآياته، والمبينة لإجماله والمخصـــصة لعمومـــه، والمقيدة لمطلقه، وهى التطبيق الحي الماثل لشرائع القرآن الكـــريم وأحكامـــه، ولذلك كان لزاما على كل مسلم أن يكون له نصيب في نصرة سنة رســـول الله (ﷺ) وكل على قدر حاله وطاقته.

وكأني برسول الله (ﷺ) وقد كُشفـــت له حجب الغيب، فعلم ماينتظر ســـنته الشريفة من تربص المتربصين بها على اختلاف ألوانهم وأهوائهم، فكـــان منـــه (ﷺ) هذا التوجيه الصارم الذي رواه عنه أبو هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رســـول الله (ﷺ): "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفـــون عنـــه تحريـــف الغـــالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"(١).

---

(١) مسند الإمام البزار ج١ ص ٨٦ ت.أ / محفوظ الرحمن زين الله وآخـــرين. وينظـــر: الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم. محمـــد بـــن إبـــراهيم الـــوزير ص٣٨ ومابعدها.

وإذا كانت الأمة الإسلامية قد ابتليت بكل هذه الأصناف، التي أخبر عنها الصادق المصدوق (ﷺ) فإن الله (ﷻ) قد هيأ لهذا الدين رجالا يردون عنه كيد كل كائد، وتحريف كل غال، وانتحال كل مبطل، وتأويل كل جاهل، ومن هؤلاء الرجال الكملة الثقات من علماء البلاغة الأبرار؛ لأن سنة النبي (ﷺ) عندما توليها البلاغة وجهتها، وتجعلها قبلتها، فتفتق أستار جمالها وتكشف مكنون كمالها، وتبين دقة ألفاظها، وروعة أساليبها، وسلاسة معانيها، لهى أكبر وأقوى رد على هؤلاء الأقزام، الذين نصبوا معاولهم لهدم سنة النبي العدنان.

ولذلك أردت ألا أُحرم من شرف البحث في ظلال الهدى النبوي فكان هذا الموضوع:

"من بلاغة النبي (ﷺ) في حديثه عن التعزية وبدع المآتم"

وهذا الموضوع جد خطير؛ إذ لا تخطئ العين كثيرا من البدع والعادات، التي أخرجت أدب التعزية عن روحه ومبتغاه، ولذلك أردت أن أعيش في رحاب الهدى النبوي الخاص بالتعزية وما يتعلق به من مآتم، مبينا أسراره البلاغية وجمالياته التعبيرية، انتصارا لسنة المصطفى (ﷺ) ووفاء ببعض حقه (ﷺ) وإلقاءً للضوء على أدب عال تحتاج إليه النفوس كل النفوس خاصة في هذا العصر، الذي انتشرت فيه البدع و تقاصرت فيه الأعمار، وكثرت فيه رائحة الموت في كل مكان وزمان وسبحان من له الدوام.

هذا وقد جاء هذا البحث في:

مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول وخاتمة.

- **المقدمة** وتناولت فيها أسباب اختياري للموضوع وخطتي فيه
- **التمهيد وتناولت فيه:** مفهوم التعزية، وأهمية هذا الموضوع، وإنسانية هذا الأدب.

وجاء الفصل الأول بعنوان: الترغيب في أداء التعزية.

والفصل الثاني بعنوان: صور من أساليب النبي (ﷺ) في التعزية.

والفصل الثالث: بعنوان: بدع ومنكرات المآتم.

ثم **الخاتمة** وتناولت فيها أهم نتائج البحـــث.

فثبت **بالمصادر والمراجع، وفهرست الموضوعات.**

والله أسأل أن ينفع بهـــذا العمل وأن يغفر تقصيري وحسبي أنى أصلحت النية، وتوكلت على رب البرية واعتمدت أسبابا قد سهلها الله (ﷻ) فلم أهمـــل ولم أقصر والحمـــــد لله في الأولى والآخرة.

الدكتور

رضا الســـعيد فايد

التمهيد

ويتناول:

١- مفهوم التعزية

٢- أهمية هذا الموضوع

٣- إنسانية هذا الأدب

أولاً: مفهوم التعزية

التعزية في اللغة:

التعزية: مصدر (عــزّى) وتعزية اسم والجمع تعــاز، ومعنــى (تعــزى): تصبر، وتعازي القوم: عزى بعضهم بعضا، ويقال: عزيتُ فلانا، أعزيه تعزيــة أي: آسيته، وضربت له الأسى، وهو من التأسي، وأصل العزاء الصبر(١).

التعزيـة في الاصطلاح:

العزاء هو الحض على الصبر عند البلاء، وتسلية أهل الميــت، وحملهــم على الصبر بوعد الأجر، والدعاء للميت والمصاب، والتعزية بالميــت تجمــع **ثلاثة أشياء:**

أحدها: تهوين المصيبة على المعزى، وتسليته، وحضه على التزام الــصبر واحتساب الأجر والرضا بالقدر والتسليم لأمر الله تعالى.

الثاني: الدعاء بأن يعوضه الله عن مصابه جزيل الثــواب، ويحــسن لــه العتبى والمآب.

والثالث: الدعاء للميت والترحم عليه والاستغفار له(٢).

---

(١) ينظر: لسان العرب. ابن منظور مادة (عزا) القاموس المحــيط. الفيروزأبــادى فــصل (العين) ج١ ص١٣١١.

(٢) ينظر: المجموع شرح المهذب. الإمام النووي ج٥ ص ٣٠٤. والمغنــى ابــن قدامــة المقدسي ج٢ ص٤٠٥، والتعازي والمراثى. المبرد. ص ٤٥.

والتعزية النبوية نقصد بها ما أداه النبي (ﷺ) من تعزية ورصد تلك الأحوال والطرائق التي أبدعها النبي (ﷺ) في هذا الواجب، وكذلك بيان المناهي التي نهى النبي (ﷺ) عنها في أمر العزاء، والتي كانت من عادات العرب وتقاليدهم؛ إذ عرف العرب في الجاهلية التعزية وأدوها شعرا ونثرا(١).

ثانياً: أهمية هذا الموضوع:

أدب التعزية من جمال الإسلام وكماله، وثمرة من ثمرات التربية في رياض الإسلام الحنيف؛ لأن المسلم أخو المسلم يشاركه أفراحه، ويسليه في أتراحه، وهى باب من أبواب التعاون على البر والتقوى، وهى باقية ما بقيت الحياة.

يقول المبرد: "والمراثي وأسبابها باقية مع الناس أبدا؛ إذ كانت الفجائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب، ولايفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها، ولا إله إلا الله الحي الذي لا يموت"(٢).

ولأن هذا الأدب من مكارم أخلاق المسلم حث عليه النبي (ﷺ) قولا، وفعلاً، ولذلك وجدنا أصحاب السنن قد أفردوه بالحديث، وجعلوا له بابا في كتبهم هو باب التعزية جمعوا فيه الأحاديث التي تتعلق بالتعزية وفضلها وآدابها وإبداع النبي (ﷺ) في هذا الأدب.

نجد هذا عند أبى داود (٢٠٢هـ - ٢٧٥ هـ)، والترمذي (٢٠٩ هـ - ٢٧٩هـ)، والإمام النووي (٦٣١هـ - ٦٧٦ هـ) أفرد له في كتاب الأذكار بابا.

---

(١) ينظر: التعازي. لأبى الحسن المدائني ص ٢٤ ومابعدها.

(٢) التعازي والمراثي. المبرد. ص ٢٦٥.

وجاءت أحاديث التعزية عند الإمامين: البخاري (١٩٤هـ - ٢٥٦هـ) ومسلم (٢٠١هـ - ٢٦١هـ) في معرض حديثهما عن الجنائز وأحوالها، وفى غيرها.

كما ألفت الكتب التى تناولت هذا الموضوع وأفردته بالدراسة مثل "**كتاب التعازي**" للمدائني (١٣٥هـ ٢٢٤هـ)، وكتاب "**التعازي والمراثي**" لأبى العباس المبرد (٢١٠هـ ٢٨٦هـ) وكتاب "**تسلية أهل المصائب**" لمحمد بن محمد شمس الدين المنبجي المتوفى ٧٨٥هـ.

وهذه الكتب لم تتناول تعزية النبي (ﷺ) فقط بل ذكرت نماذج عديدة من التعازي نثرا وشعرا، جاهلية وإسلاما، وكل هذا يدل على أهمية هذا الأدب في حياة المسلم، ومما يذكر هنا أن **أستاذي الدكتور/ محمد بظاظو** أستاذ الأدب والنقد في كليتي، له بحث عن: فن التعزية النثرية فذكر نماذج لمن أحسن فيها ونماذج لمن أساء في تأديتها مبينا أهم المضامين التي وردت في هذا الفن(١).

إلا أن أدب التعزية النبوية ظل بمنأى عن الدراسة التي تفرد له، وتوضح معالمه، وأبعاده، وإبداعه فضلا عن أسراره وبلاغته وجماله.

ثالثاً: إنسانية هذا الأدب:

أحاديث سيدي ومولاي رسول الله (ﷺ) يزيدها مر الليالي جدة، وتقادم الأيام حسن شباب، ولذلك نقرأ أحاديث النبي (ﷺ) ونسمعها اليوم من أفواه

---

(١) ينظر: فن التعزية النثرية دراسة فى المضمون والنسق أ.د/ محمد بظاظو. بحث نشر في حولية كلية اللغة العربية بإيتاى البارود. العدد السادس والعشرون ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م. ج١ ص ٢٦٧.

العلماء والدعاة، فنحس وكأن النبي (ﷺ) قالها اليوم ومن أجل تلك الحادثة التي تحدث الآن، وهذا من إشراقات النبوة على كلامه (ﷺ).

فكانت معاني النبي (ﷺ) (إنسانية لم تقيد بظرف الزمان، ولابظرف المكان، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم ولا إلى الناس في زمن النبوة فحسب ولا إلى جزيرة العرب وحدها ولا إلى طبقة دون طبقة وإنما كانت هذه المعاني تنظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان"(١) فحديث النبي (ﷺ) يعيش مع الإنسان، ولا يتركه في أي حال من أحواله، ويراعيه في كل جوانب حياته، ومازال أدب التعزية النبوية ينزل على قلوب المكلومين فيداويهم ويواسيهم ويخرجهم من الضيق إلى الفرج، ومن الألم إلى الأمل، فلا يتركهم هذا الأدب إلا وقد تبدل حالهم، وأقبلوا راضين قانعين مسلمين أمورهم لله (ﷻ) في قضائه وقدره، وحديث واحد من رسول الله (ﷺ) كان كافيا ليخلق الإنسان خلقا آخر ويغيره "تغييرا جذريا أصيلا، وكان يكفى ليصوغه من جديد، لأن معانيه كانت تهز وجدانه هزا عنيفا، وتؤثر فيه، ويتغلغل في أعماق نفسه، ولذا فإن أثر الحديث مستمر"(٢) يعالج النفوس في آباد الزمان وآفاق المكان، وقد ساعد في عمق هذا الأدب خبرة النبي (ﷺ) بالنفوس، ولذلك تعددت طرقه (ﷺ) وأفكاره وإبداعاته في العزاء تبعا لاختلاف المخاطبين وأحوالهم بما يحقق هدفه (ﷺ) من التعزية على النحو الذي سنوضحه في هذا البحث.

---

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي د/ محمد لطفي الصباغ ص ٢٤.

(٢) الحديث النبوي: مصطلحه وبلاغته ومكانته د محمد لطفي الصباغ ص ٦٤.

الفصـــل الأول
الترغيب في أداء التعزية

من أساليب الدعوة المحمدية الترغيب، الذي يدفع المسلم إلى فعل شئ والحرص عليه، يقول الألوسي: "**الترغيب:** التذكير بالخير فيما يرق له القلب"(١).

والنبي (ﷺ) سلك هذا المسلك فى تربيته لشخصية المسلم وزرع دواعي الخير وتنميتها في نفسه، وهذا نابع من فهمه (ﷺ) لطبيعة النفس البشرية التي تحتاج دائما إلى الترغيب، لأن هذه النفس – كما يقول: أبو الفرج ابن الجوزي: "كالماء الجاري فإنه يطلب الهبوط، وإنما دفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلف، ولهذا أجاب معاون الشرع بالترغيب والترهيب ليقوى جند العقل"(٢).

ولما كانت التعزية من الأمور التي لها شأنها ومكانتها في إقامة مجتمع الأخوة والمحبة رغب فيها النبي (ﷺ) وحث عليها، مبينا عظيم الأجر والثواب لمن أدى هذا الهدى النبوي، على النحو الآتي:

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى. الألوسى ج٢ ص٨٤.

(٢) صيد الخاطر. أبوالفرج ابن الجوزي ص ١٢.

الحـــــديث الأول
فضل التعزية

عن عمرو بن حزم (ﷺ) أن النبي (ﷺ) قال: "ما من مؤمن يعـزى أخـاه بمصيبة إلا كساه الله – سبحانه – من حلل الكرامة يوم القيامة"(١).
صدق رسول الله (ﷺ).

يحث النبي (ﷺ) في هذا الحديث الشريف المسلم على أداء واجب العـزاء لكل مصاب؛ فبين عظيم الأجر الذي ينتظر المسلم الذي يحرص على إقامة هذه السنة، وهو كسوته يوم القيامة من حلل الكرامة فأعظم به من أجر وأجمل بـه من ثواب.

وقد جاء هذا المعنى في أسلوب القصر ولتحديد نوع القصر لابد من قراءة الأسلوب وفهمه من خلال العالم الخارجي الذي ينبعث فيـه الأسـلوب ويـشع، ولاشك أن النفي متوجه إلى كل ماعدا المذكور فالقصر حقيقي وبالنسبة لمطابقة ذلك للواقع فالقصر هنا ادعائي لأن الرسول (ﷺ) وعد المؤمنين بهـذا الثـواب وغيره كما جاء في الحديث "من عزى مصابا فله مثل أجره(٢)، ولكـن مبالغـة في أهمية هذا الجزاء وعظمته قصر النبي (ﷺ) جزاء المعزين عليـه، وكـأن أصناف النعيم الأخرى بجانب هذا النعيم لايعبأ بها.

---

(١) سنن ابن ماجة. كتاب الجنائز. باب ماجاء في ثواب من عزى مصابا رقـم ١٦٠١ ح٢ ص ٥١١. وأخرجه الإمام البغوي في شـرح الـسنة ج٥ ص ٤٥٨ رقـم ١٥٥١ ت. الشيخ/ شعيب الأرناؤط. ط أولى ١٤٠٣هـ. والطبرانـي فـي الـدعاء ص ٣٦٩، وصححه الإمام الألباني فى صحيح ابن ماجة ج٢ ص ٤٥.
(٢) سنن ابن ماجة ج١ ص ٥١١ رقم ١٦٠٢.

وقد استخدم النبي (ﷺ) هذا الأسلوب كثيراً في أحاديثه حتى إنه ليمثل ظاهرة أسلوبيه جديرة بالبحث والدراسة، وقد أحصيت أكثر من مائة حديث جاء على هذا النسق من البيان النبوي ومنها قوله (ﷺ):

- "ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به..."(١).
- "ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده..."(٢).
- "ما من مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة يمرض مرضا إلا قص الله به عنه من خطاياه"(٣).
- "ما من مسلم يشهد جنازة امرئ مسلم إلا كان له قيراط...." (٤).
- "ما من امرأة تقدم ثلاثا من الولد تحتسبهم إلا دخلت الجنة"(٥).

وغيرها كثير من الأحاديث التي تشاكلت في بنائها الأسلوبي فكلها جاءت على أسلوب القصر وطريقه النفي والاستثناء وليس هذا فحسب بل تعدى الأمر إلى المماثلة في بناء أسلوب القصر ذاته، فأداة النفي واحدة في كل الأساليب وهى "ما"، والمقصور في كل الأساليب اسم نكرة سبق بـ "من" الزائدة والمقصور عليه وهو ما بعد "إلا" ليس كلمة واحدة وإنما هو جملة فيها شئ من التفصيل وقد تطول وتقصر.

وحق لنا أن نتساءل: لماذا كثر هذا النمط الدلالي في أحاديثه (ﷺ)؟.

---

(١) الجامع الصغير. الإمام السيوطي رقم ١٣٠١٢.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب. الإمام الألباني ج١ ص ٥٢٦ رقم ٨٧٦.

(٣) المرض والكفارات ابن أبى الدنيا ص ١٨١.

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. الإمام الهيثمى ج٣ ص ٣٧.

(٥) رياض الصالحين. النوري ص ٢٧٨ رقم ٩٥٤.

أ قول والله أعلم – إن هذا الأسلوب له من الخصائص والسمات البلاغية مالا يتوافر إلا فيه، فأسلوب القصر يفيد التأكيد بل هو أقوى أساليب التأكيد خاصة طريق النفي والاستثناء فهو أشهر طرق القصر وأقواها، "ويكاد يكون الأصل في طرق القصر فإذا قلت مثلا: ما جاءني إلا زيد، فهو تعبير عن مجئ زيد بأبلغ وجه وأوكده، حتى قالوا: إنه تأكيد على تأكيد(١).

فالنفي والاستثناء هو الطريق الأم بين طرق القصر، وهم يقيسون عليه غيره، ويصطنعونه في توضيح صورة المعنى وتحديد المقصور عليه، فيقولون مثلا: إن قولك: "إنما لك هذا، مالك إلا هذا"(٢).

فهذا الطريق من القصر يحمل أعلى طاقات القوة والتأكيد والتأكيد – هنا – ليس راجعا إلى حال المخاطب، فالمخاطبون بكلام النبي (ﷺ) هنا لا ينكرون، ولا يتشككون في كلمة تخرج من فيه – الشريف (ﷺ)، ولذلك أرى أن هذا التوكيد نابع من عمق إحساس النبي (ﷺ) بأهمية هذه المعاني وضرورتها في إقامة المجتمع الإسلامي السمح القوى البنيان؛ فأفرغ النبي (ﷺ) معانيه في قالب متين موثق، ليقررها ويؤكدها في نفوس المسلمين، فالنبي (ﷺ) يصوغ معانيه صياغة لافتة حتى تعمق في نفوس المسلمين وتسكن في سويداء قلوبهم خاصة أن العمل – كما هو الحال – في هذا الحديث قد يكون يسيرا، والأجر والمثوبة عظيم، وغريب لم يكن معهودا لأحد من قبل.

كما أن هذا الأسلوب يتسم بالعمومية وإخراج الكلام مخرج القاعدة الجامعة المانعة وذلك راجع إلى طبيعة تبليغه (ﷺ) فهو بلاغ للناس كافة، يقول العقاد: عن هذه الناحية وأثرها في أسلوبه (ﷺ): "ولصدق هذه الدلالة ترى أن

---

(١) حاشية عبد الحميد السلياكوني على المطول ص ٣٠٤.

(٢) ينظر: القصر طرقه وأثره الأدبي د/ محمود شاكر القطان ص ٣٥.

السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبـــلاغ قبل كل سمة أخرى...، بل هي السمة الجامعة لما تفرق من سمات أخرى هـــي منها بمثابة الفروع"(١).

ولذلك خرج الكثير من بيانه (ﷺ) قاصدا الاستيفاء والشمول والعمـــوم، ولا أدل على ذلك من أداة النفي "لا" وكأن امتداد الصوت في النطـــق بهـــا يحكـــى شمول المعنى المراد قصره و"من" يسميها النحاة زائدة، والمحقق عند البلاغيين أن كل كلمة في تركيب بليغ بله النبوي يجب أن تكون لها أثر في المعنـــى، وإلا كانت حشوا لا فائدة فيه وإذا كان هذا يقبح في أساليب البلغاء، فكيف نقبل به في كلام سيد البلغاء المصطفى (ﷺ) يقول الإمام عبد القاهر موضحا أصالة كل لفظ في أداء المعنى في التراكيب: "وهكذا يكون الأمر أبدا كلما زدت شـــيئا وجـــدت المعنى قد صار غير الذي كان"(٢).

وتأسيسا على ذلك فإن "من" أتت هنا للدلالة على الاستقصاء والاســـتغراق الشامل لكل مؤمن يؤدى هذا الواجب فلا يستثنى من هذا العموم أحـــد، فـــالقول بزيادة حرف لا يمكن أن نقبله في كلام بليغ فضلا عن البيان النبوي الـــشريف" فالألفاظ وضعت لتكون أدلة على المعاني، فإذا وردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة، فالأولى أن تحمل تلك اللفظة علـــى المعنـــى(٣)، واتساقا مع هذه الدلالة جاء تنكير المقصور "مؤمن" وهو نكرة في سياق النفـــي فيؤكد العموم؛ ليكون كل لفظ في الأسلوب لبنة في صرح التأكيد على شـــمولية هذا الجزاء لكل مسلم يأتي ذلك.

---

(١) عبقرية محمد (ﷺ) العقاد. ص ٨٣، دار الكتاب العربي. ط أولى ١٣٩١هـــ/ ١٩٧١م.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٨٩.
(٣) المثل السائر ج٢ ص ١٥٢.

فهذا الحديث الشريف ونظائره يقوم على دعامة أساسية من دعامات البيان النبوي وهى "الاستيفاء الذي يخرج به الكلام – على حذف فضوله وإحكامه ووجازته – مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج، ولا إحالة ولا اضطراب حتى كأن تلك الألفاظ القليلة إنما ركبت تركيبا على وجه تقتضيه طبيعة المعنى فى نفسه، وطبيعته في النفس، فمتى وعاها السامع واستوعبها القارئ تمثل المعنى وأتمه في نفسه(١).

وأسلوب القصر مبنى على الإيجاز لأنه فى قوة جملتين، حتى إن الشيخ عبدالمتعال الصعيدي جعل القصر طريقا من طرق الإيجاز(٢). والإيجاز هنا هو إيجاز القصر حيث الألفاظ القليلة والمعاني الغزيرة وهذه خصيصة بارزة في بيان النبي (ﷺ) يعرفها القاصي والداني. وقد أشار إلى ذلك النبي (ﷺ) في قوله: "أوتيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لي الحديث اختصارا"(٣).

وجوامع الكلم كما قال النووي نقلا عن الهروي: "القرآن جمع الله تعالى فى الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه (ﷺ) كان بالجوامع قليل اللفظ، كثير المعنى"(٤).

ولا شك أن الإيجاز "قوة في التعبير" وامتلاك لناصية اللغة، وهو أصلح للحفظ والرواية والتمثيل، ولا بد في الإيجاز المعتبر من الوضوح التام، فإن لم يكن الكلام وافيا بالغرض دالا على المراد فهو الإخلال، وهو عيب في الكلام

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى صادق الرافعي ص ٣٣٩. دار الكتاب العربي. لبنان. ط التاسعة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح. الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي ج٢ ص ٣.

(٣) مجمع الزوائد. الهيثمي. ج١ ص ١٧٨.

(٤) شرح صحيح مسلم النووي ج٥ ص ٥.

كالتطويل، ولا يؤتى الإيجاز إلا من رزق حدة في الذهن، وإرهافا في الإحساس البياني، ومعرفة تامة بدلالة المفردات، وإدراكا واعيا لأحوال المخاطبين وقد اجتمع ذلك كله في الرسول (ﷺ) على أكمل وجه"(١).

فالإيجاز هو السمة البارزة التي تميز حديث النبي (ﷺ) "ومن أولى منه (ﷺ) بالفصاحة وأحق بالإيجاز"(٢).

ويؤكد أبو هلال العسكري على هذه السمة فيقول: "وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك – أي الإيجاز – فحلها – أي الأحاديث – وابنها بناءً آخر فإنك تجدها في أضعاف هذه الألفاظ"(٣).

ولا نكاد ننتهي من قطاف من بلاغة النبي (ﷺ) في هذا الحديث حتى يطالعنا قطاف آخر؛ فمبنى هذا الأسلوب قائم – أيضا – على التشويق وإثارة الانتباه، فالمتلقي عندما يتسمع للجملة الأولى: "ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة" تستشرف نفسه معرفة ثواب هذا العمل، وهم يعلمون أن النبي (ﷺ) إذا وجه نظر المسلمين إلى فعل ما مهما كان صغيرا، فإنه يبشرهم بعظيم الثواب؛لأن العبرة بالنية وخلوصها لله (ﷻ).

فاستخدام هذا الأسلوب المبنى على التشويق والإثارة يعمل على تثبيت المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي؛ لأنه دخل على قلبه وهو في لهفة وشوق إليه.

ونستطيع أن نضيف تعليلا آخر لغزارة هذا الأسلوب في بيانه (ﷺ) وهو بلوغه الغاية في التلاحم وقوة السبك بين ألفاظ النص ومكوناته فلا يكاد القارئ

---

(١) الحديث النبوي: مطلحه – بلاغته – كتبه. د/ محمد الصباغ ص١٠٦.

(٢) العمدة ابن رشيق القيروان ج١ ص ٢٢٤.

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكري ص ١٧٨.

ينطق بكلمة "ما"، إلا ويأتي على كل أجزاء الحديث؛ فالألفاظ تتحدر بعضها إثر بعض في تراص وتلاحم، فأسلوب القصر بهذا الطريق خاصة "النفي والاستثناء" يشد أجزاء الحديث بعضه إلى بعض ويجعل أجزاء الحديث بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلازم الأجزاء.

وهذا هو النمط العالي والباب الأعظم من النظم الذي قال عنه الإمام: "واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال مايضع بيساره هناك(١)".

وهذا الاتحاد والارتباط بين أجزاء الكلام واضح أتم الوضوح في بناء أسلوب القصر في النص النبوي فما بعد "إلا" مرتبط وراجع لما قبلها.

وتبدو براعة المصطفى (ﷺ) وفصاحته في طريقة تكوين أسلوب القصر واختيار الألفاظ ذات الدلالات الحية المؤثرة ففي قوله (ﷺ): "**ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة**".

تتكاثر عطاءات الألفاظ فكلمة "مؤمن" التي جعلها النبي (ﷺ) في أنف حديثه الشريف بمثابة الجذر والقاعدة التي بنيت عليها كل ماجاء من معاني، "فالمؤمن "هو الذي يعزى و"المؤمن" هو الذي يكسى من حلل الكرامة يوم القيامة.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٣.

ومجيء كلمة "مؤمن" لتدل على الذات المعزية، فيه إخراج لهذا العمل من العادة إلى العبادة، لأن النبي (ﷺ) لا يتحدث عن مجرد عزاء يؤدى كواجب اجتماعي، وإنما يتحدث عن "مؤمن" وذلك يعكس طبيعة هذا الدين فكل الأعمال يجب أن تنطلق من نطاق تعبدي وانقياد واستسلام لله (ﷻ).

فلا يمارس المؤمن هذا العمل عادة وإنما عبادة، ولا يمارسه – أيضا – من أجل غرض دنيوي، وإنما هو الإيمان الذي يحرك المسلم في كل حركاته وسكناته، وهذا هو مسلك القرآن الكريم في التربية والتوجيه حيث يستثير نضارة الإيمان في قلوب المسلمين، ولذلك كثيرا ماجاءت الأوامر والنواهي في القرآن الكريم مسبوقه بنداء الإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، ولذلك كان عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) يقول: "إذا سمعتم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فارعها سمعك، فإنما هو أمر يأمرك الله به، أو نهى ينهاك الله عنه"(١) ، وابتداء التوجيه النبوي بهذه الكلمة الحية النضرة يعطى عطاء آخر وهو أن العبرة ليست بالعمل فقط، وإنما بنيته فالعزاء عظم فعله وعظم أجره من أجل هذه الصفة "الإيمان"، وهذا هو منطق القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل: ٩٧) فالإيمان أولا إذ هو سر العمل الذي يرفع به إلى الله (ﷻ)، وكم من عمل عظيم حقرته النية وكم من عمل صغير عظمته النية.

(١) ينظر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير. الشيخ أحمد شاكر ج١ ص ٦١٩.

وتقديم ذكر المحدث عنه – كما يقول الإمام عبد القاهر: "يفيد التنبيه لـــه"(١) كما أن تقديم المحدث عنه "مؤمن" آكد لإثبات ذلك الفعل "يعزى" لـــه، ويبـــين الإمام وجه هذا التأكيد فيقول: "فإن قلت: فمن أين وجب أن يكون تقـــديم ذكـــر المحدث عنه بالفعل، آكد لإثبات ذلك الفعل له.... فإن ذلك من أجل أنه لايـــؤتي بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك، فـــإذا قلت: "عبد الله" فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنـــه، فـــإذا جئـــت بالحديث فقلت مثلا: "قام" أو "خرج" أو قلت "قدم"، فقد علم ماجئـــت بـــه، وقـــد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبـــول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنـــع الـــشك، وأدخل في التحقيق"(٢).

وهذا النص الماتع الذي يستبطن بلاغة التركيب، ويضع أيدينا على دقـــائق المعاني المنبثقة من الصياغات المختلفة، لا يبين السر البلاغي فحسب وهو هنـــا "التأكيد" بل تعداه إلى بيان كيفية الولوج إلى هذا السر.

والفعل "يعزى" جاء مضارعا مع أن الجزاء مقصور على عزاء وقع وكان من الممكن أن يأتي الفعل "ماضيا" "ما من مؤمن عزى أخاه..." إلا أن التعبيـــر بالمضارع له من الفائدة ماله؛ إذ فيه استحضار للصورة وهيئة الفعل حتى كـــأن السامع يشاهد هذا الحدث ويشارك فيه، وهذا أبلغ في الدلالة وأتم في التأثير.

وتعزية المسلم لأخيه تكون بالدعاء للميت والدعاء لـــه بالـــصبر وتـــذكيره بقضاء الله وقدره – سبحانه – مما يخفف حزنه، ويهون عليه مـــصيبته، حتـــى

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣١.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٣٢.

يستكين قلبه المصاب قال الشوكاني (رحمه الله): "فكل ما يجلب للمصاب صبرا يقال له: تعزية بأي لفظ كان، ويحصل به الأجر المذكور في الأحاديث"(١).

ويرى ابن القيم أن التعزية التي يثاب عليها ليس قول بعضهم لبعض: نسأ الله فى أجلك، وتعيش أنت وتبقى وأطال الله عمرك وما أشبه ذلك بل المقصود من عمد إلى قلب قد أقلقه ألم المصاب وأزعجه، وقد كاد يساكن السخط، ويقول الهجر، ويوقع الذنب فداوى ذلك القلب بآي الوعيد وثواب الصبر وذم الجزع حتى يزيل ما به أويقلله فيتعزى(٢).

ولما كان النبي (ﷺ) حريصا على إقامة هذه السنة أوقع العزاء على هذا اللفظ "أخاه" استجاشة لأواصر المحبة والمودة والترابط التي يجب أن تكون بين المسلمين، وفى إضافة "أخ" إلى ضمير المؤمن المعزى تأكيد على هذه المعاني الجامعة بينهم والتأكيد على رابطة الأخوة الإيمانية التي تذيب كافة الفوارق بين أفراد المجتمع الإسلامي، وهذا أدعى إلى القيام بهذا الواجب واستعذاب أطيب الكلمات خاصة المأثورات فيعزيه بها؛ لأن المؤمن قليل بنفسه كثير بإخوانه ضعيف بنفسه قوى بإخوانه شديد بأعوانه، فإذا وجد هذا يعزيه وآخر يسليه سهلت عليه مصائبه.

وليس في هذا الحديث ما يمنع تعزية غير المسلم، فلا يعقل أن يكون الإسلام بسلامه وكماله وجماله الذي حث على مراعاة الحيوان والرحمة به – أقول لا يعقل أبدا أن يقف الإسلام ضد عزاء الإنسان ولو كان كافرا ولذلك أرى

---

(١) نيل الأوطار ج٤ ص ١١٧.

(٢) بدائع الفوائد. ابن القيم ج٣ ص ١٠٦٩.

ترجيح رأى من أجاز تعزية الكافر(١)؛ لأن التعزية نوع من البر المشروع في حقهم قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨)، وتكون نيته في التعزية تأليف قلوبهم وهدايتهم للإسلام؛ لأن الإسلام دين عالمي يراعى العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين المسلمين وغيرهم، فإذا عزاهم المسلم يقول: جبر الله مصيبتكم أو أحسن لك الخلف في خير، أو ما أشبه ذلك من الكلام الطيب، ولكن لا يقول: غفر الله له ولا (رحمه الله)، ولايدعو للميت الكافر؛ لأن الله تعالى نهى عن ذلك ولكن يدعو للحى بالهداية والتقوى والعوض الصالح وكل ذلك من أجل الترغيب في دين الله، ومحاولة إنقاذهم من النار، وإظهار سماحة الإسلام، وأنه بعيد كل البعد عما يرمى به من التزمت والغلو"(٢)، وهذا المعنى يرد إلى لفظ "مؤمن" في صدر الحديث، فبمقتضى إيمانه تتجه نيته في تعزية غير المسلم إلى إرضاء الله تعالى؛ لأن في ذلك العمل دعوة إلى الله بالتي هي أحسن، واتباعا لسنة الرسول الرحيم (ﷺ) الذي عاد يهوديا فأنقذه من النار، وأجاب دعوة يهودي إلى الطعام، ومرت به جنازة يهودي فوقف لها لأنها نفس مخلوقه لله (عز وجل).

---

(١) ينظر: فى ذلك حاشية ابن عابدين ج٣ ص ١٤٠، والمغنى. ابن قدامة المقدسي ج٣ ص ٤٨٦. المجموع للإمام النووي ج٥ ص ٢٧٥. ويسألونك فى الدين والحياة الشيخ أحمد الشرباصي ج١ ص ٤٣.

(٢) فتاوى نور على الدرب. الشيخ عبد العزيز بن باز ج١ ص ٣٤٧، وينظر: الأذكار. الإمام النووي ص ٢٠٥.

كل هذا وغيره تداعى من قوله (ﷺ) "أخاه" وهذا يدل على عبقريته (ﷺ) وبراعته الفائقة في اختيار ألفاظه المؤثرة والمعبرة، والكثيفة الدلالة، فيضع كل لفظ في "موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، أو إذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"(١).

ولنا أن نتمثل لفظا هنا غير هذا اللفظ النبوي "أخاه" مثل "إنسانا" أو "رجلا"، أو جاء الفعل "يعزى" مطلقا دون تقييد بمفعول، فهل نجد هذه العطاءات العذبة، والمعاني الثرة التي وجدناها مع هذا اللفظ "أخاه"؟!.

وفى قوله (ﷺ) "بمصيبة" جاءت "الباء" بمعنى السببية، ومعنى الإلصاق لا يفارقها(٢)، وما قيل من معنى السببية في "الباء" رجعه العز إلى الإلصاق المجازى(٣)، "فالمصيبة" متلبسة بهذا "الأخ" وملتصقة به، وهذا أدعى إلى المسارعة في عزائه وتطييب نفسه، والمصيبة تعم ما يصيب الإنسان من مكروه في نفس أو مال أو أهل قليلا كان المكروه أو كثيرا(٤)، ولذلك أرى ضعف من حمل كلمة "مصيبة" في الحديث على الموت خاصة يقول المناوي: "فإنه أطلق المصيبة وهى لا تختص به أى – بالموت – إلا أن يقال: أنها إذا أطلقت إنما تنصرف إليه لكونه أعظم المصائب"(٥).

---

(١) البرهان فى علوم القرآن. الزركشى. ج٢ ص ٢٣٤.

(٢) مغنى اللبيب. ج١ ص ٩٥.

(٣) ينظر: الإشارة إلى الإيجاز ص ٢٥، ومن أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم. د/ محمد الأمين الخضرى ص ١٦٦.

(٤) ينظر: روح المعانى. الألوسى ج١ ص ٤٢١.

(٥) فيض القدير. الإمام المناوى. ج٥ ص ٦٣٢.

فالأولى: أن تحمل الكلمة على إطلاقها تكثيرا للمواساة بين المسلمين خاصة أن القرآن الكريم عندما أرادها دالة على الموت أضاف الموت إليها فقال تعالى: ﴿ ...إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ... ﴿١٠٦﴾ ﴾ (المائدة: ١٠٦).

وهذا يدل على أن إطلاق كلمة (مصيبة) يدخل فيها الموت وغيره من المصائب التي تعترض الإنسان، بل إن هناك من المصائب ما تفوق فى شدتها وألمها مصيبة الموت.

هكذا جاءت الجملة الأولى من أسلوب القصر، وهى جملة المقصور التي أخبرت عن عمل يدعو له النبي (ﷺ) جماعة المسلمين وقد شوقت هذه الجملة المتلقي إلى معرفة الجزاء المترتب على هذا العمل وهو قوله (ﷺ):

"**إلا كساه الله – سبحانه – من حلل الكرامة يوم القيامة**" جاء الفعل "كساه" ماضيا، مع أن الحديث عن جزاء مستقبلي يقع لهذا المؤمن يوم القيامة، وهذا منطق القرآن الكريم في الإخبار عما يحدث يوم القيامة والسر البلاغي في هذا العدول هو الإشارة إلى أن الجزاء المتحدث عنه (الكسوة) متحقق وقوعه، وأن ذلك حاصل لا محالة، حتى كأنه فعلا قد وقع، وقد عد ابن الأثير هذا العدول من قبيل الالتفات الذي توسع في مفهومه ولم يجعله مقصورا على الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو العكس ونحو ذلك بل جعل منه الانتقال من صيغة الماضي إلى المستقبل، أو من مستقبل إلى ماض([1]).

وذكر أن هذا الالتفات بهذه الكيفية هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن([2]).

---

(١) ينظر: المثل السائر. ابن الأثير ج٢ ص ١٦٨.

(٢) السابق ج٢ ص ١٦٧.

ويبين بلاغة هذا العدول فيقول:" وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعدُ كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها"(١).

وهذا المعنى مناسب لمقام الترغيب فوكادة وقوع الفعل "كساه" دافع قوى إلى اتباع سنة النبي (ﷺ) المرغب فيها في جملة المقصور وهى التعزية.

واتساقا مع هذا التأكيد والتحقيق جاء إسناد الفعل "كساه" إلى لفظ الجلالة "الله" ومن أوفى بعهده من الله (ﷻ)؟!.

وقد بلغ المعنى بهذا الإسناد الحقيقي الغاية في التشريف والتعظيم والتكريم لهذا المؤمن الذي يهتم بأحوال الناس.

ولفظ الجلالة "الله" هو الاسم الذي تفرد به -سبحانه- وخص به نفسه، وجعله أول أسمائه، وأعظمها وأضافها كلها إليه، فكل ماجاء سواه يكون نعتا له وصفة(٢).

وأجد للفظ الجلالة (الله) هنا ظلالا لا يخطئها الحس ولا تغيب عن الذوق، فإسناد الكسوة إلى الله – سبحانه – دون غيره من أسمائه الحسنى، لأن ذلك مناسب أتم المناسبة للمعنى إذ الحديث عن ثواب يغدقه الله (ﷻ) على هذا الصنف من المؤمنين يوم القيامة وهو يوم فيه من الأهوال ما فيه، فناسب ذلك مجئ لفظ الجلالة "الله" لما فيه من معاني القهر والغلبة والجلال.

---

(١) ينظر: المثل السائر. ابن الأثير ج٢ ص ١٨٥.

(٢) ينظر: المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى. أبو حامد الغزالى ص٦٠. وينظر: أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة. د/ أحمد مختار عمر ص ٤٢.

وكلمة – سبحانه– اسم مصدر بمعنى (تسبيحا) وهو مفعول مطلق منصوب، ناب عن عامله فعله المحذوف وجوبا وتقديره (أسبح)([1]).

وكلمة –سبحانه– تنزيه الحق عن النقائض، ومالا يليق بعظمته وكماله، والنبي (ﷺ) أتى بهذه الجملة –سبحانه– تنزيها للحق –سبحانه– أن يكون له مثيل في البشر لا ذاتا ولا صفات ولا أفعالا؛ فلا نأخذ معنى "الكسوة" بمقاييس أفعالنا.

فهذه الكلمة تنزه فعل الله (ﷻ) أن يكون كأفعالنا الحادثة، فلا شبيه ولامثيل له –سبحانه–([2]).

ولأن الكاسي هو الله (ﷻ) فلا ريب أن تكون الكسوة مناسبة لجلال الملك (ﷻ) فكان قوله (ﷺ): "**من حلل الكرامة يوم القيامة**"

وقد أجاز السندي في قوله (ﷺ): "حلل الكرامة" أكثر من معنى فقال: "من حلل الكرامة أي: من الحال الدالة على الكرامة عنده، أو من حلل أهل الكرامة أو هي حلل نسجت من الكرامة وهذا مبنى على تجسيم المعاني، وهو أمر لا يعلمه إلا الله تعالى"([3]).

وأرى حمل هذا الأسلوب على الحقيقة، دون تأويل، لأن الكاسي هو الله (ﷻ) الذي لايعجزه شئ في السماوات ولا في الأرض والذي لايمتنع عليه شئ أبدا، فهي حلل يلبسها الله – سبحانه – للمؤمن المعزى بكيفية لا يعلمها إلا الله (ﷻ).

---

(١) ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه أ/ محيي الدين الدرويش ج٣ ص ٥٢.

(٢) أخذت هذه المعاني من خواطر الإمام الشعراوي (رحمه الله) حول قوله تعالى: "**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا**" الإسراء ١.

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجة ج١ ص ٤٨٦.

ولا حاجة تدعو إلى حمل الكلام على الاستعارة التي تفيد التجسيد لجعل المعنوي شيئا ماديا ملموسا، وأحداث يوم القيامة التي تتبدل فيها الأرض غير الأرض والسماء لا ينظر إليها من منظورنا القاصر وقياساتنا الدنيوية، ولذلك رد ابن قتيبة على اتجاه المعتزلة الذين يرون في التعابير التي تصف الله بصفات متعددة في عالم البشر علامات نقص لا تليق بجلال الكمال الإلهي والتنزيه المطلق فلذلك حملوها على المجاز(١)- رد عليهم ابن قتيبة - بحمل هذه التراكيب على ظاهرها فقال: "وسائر ماجاء في كتاب الله (ﷻ) من هذا الجنس وفى حديث رسول الله (ﷺ) ممتنع عن مثل هذه التأويلات، وما في نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجيب؟ والله تبارك وتعالى ينطق الجلود والأيدي والأرجل ويسخر الجبال والطير بالتسبيح"(٢).

ولأن الكريم - سبحانه - إذا أعطى أعطى الجزيل الكثير، جاءت كلمة (حُلل) بمادتها وصيغتها لتدل على عظم هذا العطاء، فكلمة (حَلل) جمع: حُلة "وجاء في اللسان أن "الحلل" برود اليمن ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين(٣).

فاللفظة في ذاتها تدل على لباس فيه تكريم وتمدح، وكلمة (حلة) تجمع على "حلل" و "حلال" وحلل على وزن فعل وهو من جموع الكثرة وهو ما فوق عشرة إلى مالا نهاية(٤).

وهذا له دلالته وبلاغته فاستخدام جمع الكثرة هنا يناسب مقام التفضل والعطاء من الله (ﷻ) لعباده المؤمنين المعزين، ويتناسب هذا الجمع أيضا مع

---

(١) ينظر: علم الكلام والنظرية البلاغية عند العرب د/ محمد النويرى ص ٣٧.

(٢) تأويل مشكل القرآن. ابن قتيبة. ص ١١٢.

(٣) ينظر: لسان العرب (حلل).

(٤) ينظر: شرح التسهيل. ابن مالك. ج١ ص ٢٣. واللمع. ابن جنى ص ١٠٧.

الكثرة الكاثرة التي تنتظر هذا الثواب من الله (ﷻ) يوم القيامة ففي لفظ: حلل "تناسب بين اللفظ والمعنى.

ومع أن الجزاء لا يقع إلا يوم القيامة والمعنى مفهوم بدون هذا القيد الزمني "يوم القيامة"، إلا أن هذا القيد أفاد الأنس والتلذذ بهذا التكريم؛ فقد استدعى هذا القيد الصورة الذهنية الكامنة في نفوس المؤمنين ليوم القيامة تلكم الصورة التي تهز النفوس وتقلق القلوب، فالنعيم بذكر هذا القيد أتم وأبلغ تأثيرا في النفوس، ففي هذا اليوم الذي لا علم بكنه أحواله إلا الله (ﷻ) يتلقى الله (ﷻ) هذا المؤمن المعزى بواسع رحمته وعظيم عطائه فيكسوه من حلل الكرامة الدالة على تمام النعيم والتكريم له؛ لأن حلله إذا كانت من الكرامة فما بالنا بحال لابسها على العموم، وكل ذلك باعث ومحفز على الإتيان بالمقصور وهو تعزية المؤمن لأخيه الإنسان، والمسارعة فيه، خاصة أن للتعزية مدة لا ينبغي تجاوزها، وجمهور الفقهاء على أن وقت التعزية من الموت إلى ثلاثة أيام بعد الدفن، وتكره بعد ذلك(١) لأنها تجدد الحزن وتثيره في النفس، فلا تتحقق منها الفائدة المرجوة بل قد يحصل النقيض.

التنظير بين روايات الحديث:

هذا الحديث الذي تناوله البحث له رواية أخرى عند البيهقي(٢) من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ):

"من عزى أخاه المؤمن في مصيبة كساه الله حلة خضراء يحبر بها يوم القيامة، قيل: يا رسول الله ما يحبر؟ قال: يغبط"(٣).

---

(١) ينظر: حاشية ابن عابدين ج٢ ص ٢٤٠، وكشف القناع لبرهان الدين ابن مفلح. ج٢ ص ١٦.

(٢) شعب الإيمان البيهقي ج١١ ص ٤٦٤.

(٣) الحديث حسنه الألباني في أحكام الجنائز ص ٢٠٦، وفى إرواء العليل رقم ٧٦٤.

وقد سلك الحديث من رواية عمرو بن حزم أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء وقد بينا آنفا بلاغة مجئ المعنى على هذا الأسلوب، أما الحديث من رواية أنس بن مالك (رضي الله عنه) فقد جاء بأسلوب الشرط وأداته (من)، وهذا الأسلوب فيه إثارة وتشويق – أيضا– فعندما تلقى جملة الشرط " عزى أخاه المؤمن في مصيبة" فإن النفس تستثار لمعرفة عاقبة فعل ذلك، وهذا يوقظ عند المتلقي مدارك حسه فيجعلها متأهبة لسماع الجواب فيتمكن.

وأداة الشرط "من" كما يقول ابن هشام: في قوة كلمتين: **الأولى:** الدلالة على الأناس بحكم الوضع، فهي شاملة لكل أفراد جنس المخاطبين رجالا ونساء، والحديث عن إقامة سنة شرعية، والسنن الشرعية يخضع لها كل أفراد المسلمين مهما كان شأنهم ووضعهم، وهذا يتسق مع "من" التي تعطى دلالة كلية عامة تشمل كل مكلف.

الثانية: الدلالة على الشرط لتضمنها معنى "إن"(١).

فهذه الرواية تلتقي مع رواية أسلوب القصر في الدلالة على، الإثارة والتشويق وتنفرد رواية القصر بما فيها من مزيد القوة والتأكيد والحصر.

والروايتان تلتقيان على إزكاء أخوة الإيمان تربية للعقيدة الصحيحة في نفوس المسلمين، وفى رواية سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه) جاءت "في" في قوله (ﷺ) "في مصيبة" وهى هنا واقعة موقع "الباء" بمعنى السببية، ومجي "في" هنا يدل على التمكن والاستقرار، استمدادا من إحاطة الظرف بمظروفه، واحتوائه له، واشتماله عليه، فالمصيبة بحرف الظرفية "في" قد داخلت حنايا قلب المصاب، واشتدت عليه، وتمكنت من نفسه وقلبه، وهذا آكد في إقامة هذه

(١) ينظر: رسالة المباحث المرضية. ابن هشام المصري ص ٣٤ وما بعدها.

السنة؛ لأن المعزى في أمس الحاجة إلى من يهون عليه هذه المصيبة الشديدة التي عصفت به، وهذا ما نشرته دلالة حرف الجر "في".

ومفارقة أخرى بين الروايتين في موضوع الثواب ففي رواية عمرو بن حزم جاء الثواب هكذا: "**كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة**"

وفى رواية سيدنا أنس بن مالك (ﷺ) جاء الثواب هكذا: "**كساه الله حلة خضراء يحبر بها يوم القيامة**"

والتوفيق بين الروايتين سهل ميسور، فهذه الرواية بينت لون الحلة، والرواية الأخرى بينت مادة هذه الحلة وهى "الكرامة"، فدلت الروايتان على أن الله يكسوهم حللا خضراء من حلل الكرامة يوم القيامة.

والحلة الخضراء من جمالها وبهائها كانت لباسا لخير الأنام سيدى ومولاى رسول الله (ﷺ) كما في الحديث عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ):

"**يحشر الناس يوم القيامة، فأكون أنا و أمتي على تل، فيكسوني ربى (ﷻ) حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود**"(١).

وفى استخدام "اللون الأخضر" إعجاز علمي إذ اكتشف العلم التجريبي أن اللون الأخضر مريح للبصر، يبعث السرور داخل النفس، ويثير بواعث البهجة فيها، ويبعث الهدوء والسكينة؛ ولذلك لم يجد الأطباء في العمليات الجراحية أفضل من اللون الأخضر لارتدائه لأنه يخفف الآلام عن المريض ويمنحهم الإحساس بالبهجة، وهذا اللون الأخضر لا نراه في البيان القرآني إلا في مواطن الخير والجمال والسلام والنماء، والحياة، والبهجة، والسرور، ولذلك

(١) المعجم الأوسط. الطبراني ج٨ ص ٣٣٦.

كثر ذكر هذا اللون عند الحديث عن المتقين وما أعده الله (ﷻ) من نعيم في الجنة، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الكهف: ٣١).

ويقول – سبحانه –: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الرحمن: ٧٦).

ويقول (ﷻ): ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ... ﴿٢١﴾ ﴾ (الإنسان: ٢١). فكأن الخضرة من أسرار سعادتهم في دار الخلد، حتى في المساند التي يتكئون عليها والملابس التي يلبسونها(١).

ويتجلى هنا وجاهة التناسب بين الشرط وجزائه، فالمعزى بعزائه الطيب أسكن القلب المكلوم الرضا والطمأنينة فكان جزاؤه الحلل الخضراء التي تكسب النفس البهجة والسرور فكما كان في دنياه بردا وسلاما على الناس، كان جزاؤه من جنس عمله يوم القيامة – والله تعالى أعلى وأعلم –.

وبذلك يكون النبي (ﷺ) في هذا الحديث الشريف الذي رغب من خلاله (ﷺ) في إقامة هذه السنة، قد بلغ ببيانه الشافي وأساليبه الرصينة غاية الهداية والإقناع، وهذا هو موضوع علم البلاغة، كما ذكر ابن قتيبة نقلا عن عمرو بن

---

(١) ينظر: اللغة واللون د/ أحمد مختار عمر ص ٤١، وظاهرة اللون في القرآن الكريم د/ محمد قرانيا ص ٨٨. مجلة التراث العربي العدد. ٧ يناير ١٩٩٨م. والإعجاز اللوني في القرآن الكريم. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الشبكة العنكبوتية. ودلالات اللون في الفن العربي الإسلامي د/ محمد الدوري ص ٢. وما بعدها.

عبيد حيث ذكر أن موضوع علم البلاغة هو: "تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة من الكتاب والسنة"(١).

وهكذا يجب أن ينظر إلى علم البلاغة، فتحليل النص وبيان جماله وبهائه وأساليبه وأسراره ليس غاية في ذاته بل الغاية هو إبراز هذا الجمال وتقريبه وبثه في المجتمع إقامة للسنن والأحكام حتى نراه واقعا ماثلا أمام الأعين.

هذا ولم يصح في فضل التعزية إلا الحديث السابق بروايتيه السابقتين.

والله أعلم

(١) ينظر: عيون الأخبار. ابن قتيبة ج٢ ص ١٤٦.

الفصـــل الثاني
صور من أساليب النبي (ﷺ) في التعزية

من وسائل دعم الترابط، وتقوية أواصر المحبة في المجتمع، إقامة هذه السنة النبوية (التعزية) لما فيها من التكافل والتراحم بين أفراد المجتمع؛لأن الإنسان عندما يرى الناس معه في مصيبته وأحزانه يقوى ارتباطه بهم، وهذا المعنى أساس هذا الدين الحنيف؛ لأنه دين الأخوة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات: ١٠)"؛ ولأنه دين الوحدة والاتحاد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأنبياء: ٩٢)؛ ولأنه دين التآلف والتحابب قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ...﴿١٠٣﴾ ﴾(آل عمران: ١٠٣)؛ ولأنه دين التكافل والتعاون، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ...﴿٢﴾ ﴾ (المائدة: ٢).

ولذلك حرص (ﷺ) على إقامة هذه السنة وقد أثر عنه (ﷺ) الكثير من الصور والأساليب في تعزيته فتارة تكون تعزيته ببيان حقيقة هذا الوجود تهوينا للأمر على صاحب المصيبة، أو بالدعاء للميت، أو ببيان ثواب الصبر والاحتساب فلا يترك المكلوم إلا وقد نهل من كؤوس الرضا والطمأنينة، على النحو الذي سنوضحه في الصفحات التالية:

الحديث الأول
التعزيــة بأعزب الكلمات

عن أسامة بن زيد (ﷺ) قال: كنا عند النبي (ﷺ) فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا لها أو ابنا لها في الموت، فقال للرسول: ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شئ عنده بأجل مسمى، فمرها: فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها قال: فقام النبي (ﷺ) وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع، كأنها في شنة، ففاضت عيناه فقال له سعد: ماهذا يارسول الله؟ ! قال: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"(١). صدق رسول الله (ﷺ).

هذا البيان النبوي الشريف كما يقول الإمام النووي: "من أعظم قواعد الإسلام المشتملة على مهمات كثيرة، من أصول الدين وفروعه، والآداب والصبر على النوازل كلها والهموم والأسقام، وغير ذلك من الأعراض"(٢).

وقد أطال شراح الحديث النفس في بيان معرفة اسم بنت النبي (ﷺ) التي أرسلت إليه، واسم ولدها، واختلفوا في ذلك، فمن قائل: إنها زينب في ابنها على

---

(١) صحيح البخاري كتاب الخبائز باب ما يرخص من البكاء في غير نوح ج٢ ص٧٩ رقم ١٢٨٤ وصحيح مسلم كتاب الجنائز. باب البكاء على الميت ج٢ ص ٣٤٢ رقم ٩٢٣، وأخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب في البكاء على الميت ج٣ ص ٢٥١ رقم ٣١٢٥ والنسائي في كتاب الجنائز باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة ج٤ ص ٣٢١ رقم ١٨٧١. واللفظ لمسلم.

(٢) الأذكار. ص ٢٠٥.

بن أبى العاص بن الربيع، أو في ابنتها أمامة بنت أبى العاص، وقائل: هي رقية فى ابنها عبد الله بن عثمان بن عفان وآخر: هي فاطمة في ابنها محسن بن على ابن أبى طالب، وذكروا اعتراضات وترجيحات(١)، وأرى ألا نطيل الكلام في ذلك؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فما يهمنا هو الحدث وحكايته، بصرف النظر عن الأشخاص أيا كانت، فما يعنينا هو أداء النبي (ﷺ) وكيف تلقى وتفاعل مع هذا الحدث، وما نستأنس به في ذلك، أن النبي (ﷺ) خرج بأسلوبه من نطاق خاص شخصي إلى نطاق عام يصدق على كل من يعزى ويواسى، وهذا مما يميز معاني الهدى النبوي، إذ تأتى إنسانية غير مرتبطة بالزمان والمكان والأشخاص، فهي مع كل إنسان، في كل مكان وفى كل زمان فالنبي (ﷺ) "تكلم للأجيال كلها في الأزمنة كلها وفى الأمكنة كلها؛ لأنه (عليه السلام) بعث لهؤلاء جميعا ولكل جيل قضاياه ومشاكله، ولذلك كان كلامه (عليه السلام) ممسكا دائما بالجوهر الذي هو أقرب إلى فطرة الأشياء وليس ممسكا بالغرض المتغير"(٢).

وقد بدأ سيدنا أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) روايته لهذا الحديث الشريف بقوله: "كنا عند النبي (ﷺ) فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا لها أو ابنا لها في الموت".

وقد خلص الصحابي الجليل بهذه المقدمة الموجزة إلى بيان النبي (ﷺ) فبين الحدث المسبب لهذا البيان وركز على المضمون فلم يلتفت إلى من تكون بنته التى أرسلت إليه لعدم تعلق أي فائدة بذلك، وكذلك لم يلتفت إلى حامل الرسالة إلى رسول الله (ﷺ) فأفادنا (رضي الله عنه) أمرين:

---

(١) ينظر: فتح الباري ج٣ ص ٢٠٠ والكوكب الوهاج ج١١ ص ١١٢.

(٢) شرح أحاديث من صحيح مسلم د/ محمد أبو موسى ج٢ ص ٦١٢.

١- وجوده هو وغيره من الصحابة عند النبي (ﷺ) وتصديره رواية الحديث بهذه الجملة (كنا عند النبي (ﷺ)) يشي بتلذذه بذلك وأن مصدر فخاره وعزه وشرفه أن يكون في صحبة النبي (ﷺ) فيسجل ذلك في بداية روايته لهذا الحديث، فليس لوجودها أهمية في بيان تتابع الأحداث بدليل مجئ رواية البخاري بدونها(١).

٢- مجئ رسول بنت النبي برسالة إلى النبي (ﷺ) يخبره فيها: "أن ابنا لإحدى بناته في الموت" وهذه هي رواية مسلم، ورواية البخاري "إن ابنا لي قبض" والناظر في الحديث أن الصبي رفع إلى النبي (ﷺ) وهو يموت، فرواية البخاري من قبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون، فقد تحقق لها (ﷺ) موت ولدها فعبرت عن ذلك بصيغة التحقيق الفعل الماضي "قبض" ورواية مسلم "في الموت" تدل على احترام الموت للصبي وإحاطته به إحاطة الظرف بالمظروف، والقصد من وراء ذلك حث النبي (ﷺ) على المجئ إليها، فلم يكن القصد إعلامه بذلك فحسب وإنما إعلامه بهذا الموت من أجل مجيئه (ﷺ) وقدومه إلى بنته (رضي الله عنها) بدليل رواية البخاري "إن ابنا لي قبض فأتنا"، فطلب حضور النبي (ﷺ) هو مناط الاهتمام، والقصد من الخبر، وقد ظهر ذلك عندما أقسمت على النبي (ﷺ) أن يأتيها.

وقد أجابها النبي (ﷺ) برسالة بعث بها إليها وقد بدأ نص كلامه (ﷺ) بقوله مخاطبا الرسول: "ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسى فمرها فلتصبر ولتحسبت".

---

(١) صحيح البخاري ج٢ ص ٧٩.

وقد سارع النبي (ﷺ) بإلقاء هذا الرد بمجرد سماعه لرسالة الرسول لأن الراوي أسامة بن زيد قال: "فقال للرسول..." والفاء حين تقرن بفعل القول في باب المحاورة إنما يرمى بها إلى إبراز أن هذا القول ما كان له أن يكون إلا لما سبقه من قول إيماء إلى شديد استدعاء المقام له، فضلا عن إبراز عنصر التعقيب، وأنه قول لم يتكلف له قائله وأن داعيه كان أقوى من أن يحمل المرء مؤنة الصبر عنه(١).

فهذه "الفاء" التي ذكرت أكثر من مرة في هذا النص النبوي تحكى واقع الأحداث وتواليها بسرعة.

وقد بدأت رسالة النبي (ﷺ) إلى فلذة كبده بتوجيه هذا الأمر إلى رسولها: "ارجع إليها".

وقد يقول قائل: إن هذا من قبيل تحصيل الحاصل لأن الرسول لا محالة راجع إليها، ولذلك لم يذكر هذا الأمر في كل روايات الحديث، ففي رواية البخاري: "فأرسل يقرئ السلام ويقول: "الحديث"، ولذلك فهذا الأمر من رسول الله (ﷺ) (ارجع) ومجئ "إلى" التي تدل على منتهى الغاية المكانية للرجوع مضافة إلى ضمير بنته (ﷺ) كل هذا يدل على اهتمام النبي (ﷺ) البالغ بسرعة وصول هذه الرسالة ونفاذها إلى فلذة كبده، حتى أنه أخرج كلامه في أسلوب تكليفي، حتى لا تكون هناك مظنة تلكؤ من رسول بنته في إيصال رسالة النبي (ﷺ) إليها.

ولا تناقض بين الروايتين؛ لأن اختلاف الروايات إما أن يكون ناجما عن اختلاف الواقعات، أو الواقعة واحدة لكن الرواة اختلفوا في روايتها، والمرجح

---

(١) فقه بيان النبوة منهجا وحركة د/ محمود توفيق سعد.

هنا أن الواقعة هنا واحدة لكن اختلفت روايتها، خاصة أن الاختلاف هنا ليس في لفظ النبي (ﷺ) بل في ألفاظ الرواة المهيئة لحكاية أقواله (ﷺ).

ولا شك أن سيدنا أسامة بن زيد (رضي الله عنه) يركز على الأحداث اللازمة والضرورية في نقل النص وسكت عما هو معروف بالبداهة، فسكت عن إقراء السلام في بداية الرسالة، والتي وضحتها رواية أخرى لأن النبي (ﷺ) ما كان له أن يبدأ رسالته لفلذة كبده دون السلام، الذي كان النبي (ﷺ) حريصا على إلقائه في رسائله للملوك ولم يكونوا مسلمين، أفيغفل رسول الله (ﷺ) عنه في رسالته إلى فلذة كبده؟!.

ومجئ "الفاء" في قوله (ﷺ) "فأخبرها" وهى تدل على التعقيب والسرعة، وطي الزمن، جعلت هذا الرسول يسرع في إلقاء رسالته (ﷺ) بمجرد مثوله أمام بنته (ﷺ).

والجملة مناط الإفادة والإبلاغ: قوله (ﷺ): "أن لله ما أخذ وله ماأعطي وكل شئ عنده بأجل مسمى فمرها فلتصبر ولتحتسب".

وهذه الكلمات من أحسن ما يعزي به كما قال الإمام النووي(١)؛ لأن من أدرك هذه المعاني تهون عليه مصائب الدنيا مهما عظمت ولذلك قال أهل العلم: إن هذا الحديث أصل في التعزية(٢)، إذ في معناه الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى فهذا الذي أخذه منكم كان له لا لكم، فلم يأخذ إلا ما هو له، فينبغي ألا تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه وديعة أو عارية وما وهبه الله لكم ليس خارجا عن ملكه بل هو (ﷻ) يفعل فيه ما يشاء، وكل من يأتي قد

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم الإمام النووي ج٦ ص ١٩٩.
(٢) ينظر: مرقاة المفاتيح ج٣ ص ١٢٣١.

انقضى أجله المسمى فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله، فاصبروا واحتسبوا مانزل بكم(١).

وقد جاءت الجمل السابقة مؤكدة بأكثر من مؤكد، وأول هذه المؤكدات "أن" فهي حرف توكيد ينشر دلالته على المعاني التي دخلت عليه، ولعل وجه دلالة "أن" على التأكيد كامن في جانبين:

الأول: من ناحية البناء الصوتي لهذا الحرف حيث ينبعث الهواء المقذوف من الحلق إلى الخياشيم فيتردد ويجول فيها ويسمع لجولانه في الأنف صدى ناعما تتبعه غنة مدوية باحتكاك الهواء بجدار الأنف، فيحدث في السمع إيقاعا يتكرر مرة بالسكون ثم أخرى بالفتح، وبذلك يزداد السامع والسمع تشبعا به فيستقر مفهومه في الذهن وغايته فى الوجدان، وحينئذ يقع الكلام مؤكدا.

الثاني: من جانب المعنى فكل جملة اقترنت بـ "أن" تدل على معنى زائد يضاف إلى أصل المعنى المراد، فكأن الجملة التي اقترنت بـ"أن" قد تكررت مرتين، فأفادت فى المرة الأولى التأسيس، وأفادت عند الإعادة التوكيد والتقرير(٢).

وجاء تقديم "لله" ليفيد القصر الحقيقي التحقيقي فكل ما أخذ مقصور ملكيته على الله (ﷻ).

---

(١) ينظر: فتح الباري ج٣ ص ٢٠٠ وشرح صحيح مسلم. النووى ج٦ ص ١٩٩. عمدة القاري ج٦ ص ١٠١ وإرشاد الساري ج٣ ص ٤٠٣ وما بعدها.

(٢) أفدت هذه الدلالات مما ذكره الشيخ العلامة / محمود محمد شاكر (رحمه الله) في بحث له بعنوان: علم أصوات الحروف سر من أسرار العربية. مجلة المقتطف ص ٦٤ عدد يونيو ١٩٤٠م.

وتقديم الجار المتصل بضمير لفظ الجلالة الله "له" أفاد أيضا القصر الحقيقي التحقيقي فكل العطايا مقصور ملكها على الله – سبحانه – وهذا القصر له دوره في تأكيد هذا المعنى في النفس المكلومة، التي قد تهتز وتضطرب لما ألم بها من ألم الفراق، فيأتي هذا المعنى الجامع ليذكر المسلم بحقيقة وجوده وحقيقة ما له وما عليه، وأن المالك الحقيقي هو الله (ﷻ)، وهذه الكلمة ليست مجرد تعزية؛ بل هي حصن للمسلم من الوقوع في عدم الرضا بالقضاء، ومنجاة له من الاعتراض على الأقدار، إن هذه الكلمات هي لب العقيدة التي تزرع شجرة الرضا في نفس المسلم؛ لأن المسلم إذا وقر في قلبه أنه وماله وأهله وكل شئ حوله ملك لله (ﷻ) فلن يجزع ويغضب على تصرف المالك في ملكه، وقد أدت المقابلة بين الجملتين "لله ما أخذ"، و"له ماأعطي" دورها الدلالي؛ فلم تكن حلية بديعية جاءت لتزيين المعنى بل أدت غرضا مهما في إيضاح المعنى وإبرازه وإحكامه، فذكر "ملكية الأخذ" ومقابله "ملكية الإعطاء" استوعب الحقيقة كاملة أمام قلب المسلم وعقله.

وقدم ذكر الأخذ على الإعطاء وإن كان متأخرا في الواقع لما يقتضيه المقام([1])؛ فالمقام مقام أخذ فكان الأنسب أن يكون في صدر الكلام.

وللعلماء في توجيه "ما" وجهان:

الأول: أنها في الموضعين مصدرية، والتقدير: لله الأخذ والإعطاء.

الثاني: أنها موصولة والعائد محذوف والتقدير: لله الذي أخذه من الأولاد، وله ما أعطى منهم([2]).

---

(١) ينظر: فتح الباري ج٣ ص ٢٠٠.

(٢) ينظر: إرشاد الساري ج٣ ص٤٠٤ والكوكب الوهاج ج١١ ص ١١٢٠، وعمدة القاري ج٦ ص١٠١.

وأميل إلي رأي من قال بمصدرية (ما)، لأن الغرض – والله أعلم –هنا إثبات المعنى في نفسه للفاعل من غير نظر إلى شئ وراء ذلك، فالغرض إثبات الأخذ لله (ﷻ) من غير نظر إلى كونه يأخذ ولدا أو مالا أو غير ذلك، كذلك إثبات الإعطاء لله (ﷻ) من غير نظر إلى كونه يعطى قليلا أو كثيرا، ذهبا أو فضا، ولدا أو بنتا.

وقوله (ﷺ): "**وكل شيء عنده بأجل مسمى**"

معطوفة على ما قبلها بـ "الواو" فالوصل هنا للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع، حيث اتفقت الجملتان لفظا ومعنى في الخبرية والمناسبة الجامعة هي التقاء الجمل على غرض واحد هو تسلية المصاب ومواساته، بتذكيره بأسس العقيدة النقية، فالمعنى فى هذه الجملة لفقا للمعنى فى الأخرى ومضاما له، والعطف فى كل هذه الجمل متلائم الأطراف متناغم الأجزاء، ومما حسن الوصل اتفاق الجمل في الاسمية. و "كل" لفظ دال على الإحاطة بالشئ، وكأنه من لفظ الإكليل والكلالة والكلة مما هو في معنى الإحاطة بالشئ وهو اسم واحد فى لفظه جمع في معناه، وحقه أن يكون مضافا إلى اسم منكر شائع في الجنس من حيث اقتضى الإحاطة(١). فـ"كل" من ألفاظ العموم فإذا أضيفت إلى "شئ" أفادت قضية كلية مفادها أن كل ما يؤخذ وما يعطي مقدر عند الله ومحدد بوقت معلوم؛ لأن الله – سبحانه – "لما خلق الدواة واللوح والقلم أمر القلم أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة لا معقب لحكمه"(٢). ومجئ كلمة (عنده) وهى عندية العلم والإحاطة بوقت ما يؤخذ ووقت ما يعطى، مع أنها معلومة ضمنا فكان يمكن أن يأتي الأسلوب بدونها والمعنى مفهوم إلا أن ذكرها فيه زيادة في

(١) بدائع الفوائد ج١ ص ٣٦٦.

(٢) عمدة القاري ج٦ ص ١٠١.

ترسيخ هذا المعنى في النفس المكلومة فالمقام هنا يستدعى تقرير المعنى وتثبيته وإيضاحه حتى يستل مرارة الألم ولوعة الفراق، وفي كلمة "مسمى" استعارة؛ لأن المسمى حقيقة المميز باسم يميزه عما يشابهه في جنسه أو نوعه، فمنه أسماء الأعلام وأسماء الأجناس والمسمى هنا مستعار للمعين المحدود وإنما يقصد تحديده بنهاية الأزمان المعلومة، فشبه ذلك بالتحديد، بوضع الاسم بجامع التعيين؛ إذ لا يمكن تمييزه عن أمثاله إلا بذلك، فأطلق عليه لفظ التسمية([1]).

ولم يرد الأجل المسمى "في القرآن الكريم مجرورا بـ (الباء) وإنما جاء مجرورا بـ "إلى" في البقرة آية ٢٨٢، وهود ٣، وإبراهيم ١٠، والنحل ٦١، والحج ٥، ٣٣، ولقمان ٢٩، وفاطر ٤٥، والزمر ٤٢، والشورى ١٤، ونوح ٤، أو مجروا بـ (اللام) كما في الرعد ٢، وفاطر ١٣، والزمر ٥.

ولذلك أرى أن "الباء" هنا واقعة موقع "إلى" بدليل رواية للبخاري جاء فيها التعبير بـ "إلى"([2]) والسر في التعبير "بالباء" مع الأجل المسمى، أن "الباء" تجعل الأخذ والإعطاء في صحبة الأجل المسمى لا ينفك عنها، وهذا هو معنى "الباء" بما فيها من معنى الإلصاق والمصاحبة، ومحصلة فهم هذه المعاني من كون الأخذ والإعطاء مقدر عند الله – تعالى – بوقت معلوم وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر والذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل. أقول: محصلة هذا الفهم أن تكون النفس مهيئة للأمر بالصبر والاحتساب في قوله (ﷺ): "**فمرها فلتصبر ولتحتسب**"

---

(١) أفدت ذلك من التحرير والتنوير. ج٣ ص ٩٩.

(٢) صحيح البخاري ج٩ ص ١٣٣ رقم ٧٤٤٨.

وهناك اختلاف بين هذه الرواية، ورواية البخاري إذ وردت "فلتصبر ولتحتسب" بدون "فمرها"(١)، والروايتان تتفقان في تحقيق الهدف المنشود من النص الشريف، حيث إن ثمرة التذكير في الروايتين التزام المعزى بالصبر والاحتساب إلا أن قول النبي (ﷺ) "فمرها" فيه مزيد اعتناء بالأمر بالصبر والاحتساب؛ لأن "الفاء "أفصحت عن شرط مقدر تقديره "إذا أخبرتها بذلك فمرها...".

وسر الحذف هنا وجازة العبارة وتكثيف دلالتها لمعالجة ألم فلذة كبده (رضي الله عنها) كما أن ضيق المقام هنا يجعل الأسلوب يميل إلى هذا الحذف والإيجاز، وبهذا الأمر "فمرها" بدا الأسلوب وكأنه تكليف بعد تكليف وتأكيد على إيصال رسالته (ﷺ) إلى فلذة كبده والفاء في قوله: "فلتصبر" جعلت "أول مادخلت عليه موصولا بآخر ماعطفت عليه، وكأنها عروة يمسك بها الحدث بالحدث والفعل بالفعل"(٢) فهذه "الفاء" بما فيها من معنى التعقيب تدل على سرعة إنفاذ هذين الأمرين إلى بنته (ﷺ).

وتأكيدا على هذا المعنى جاءت لام الأمر في الفعلين فكأنه تكرير لكلمة "مرها" إذ قد يصح المعنى لو قيل: "فمرها بالصبر والاحتساب" إلا أن مجئ لام الأمر فيه تأكيد على هذا الأمر، وهذا يدل على أهمية ذلك في معالجة النفس المكلومة إذ هو مناط الإفادة من الفهم العميق لما سبق وقرره النبي (ﷺ) في بداية كلامه، فالمعاني كلها تنحدر إلى هذا الأمر: "**فلتصبر ولتحتسب**".

---

(١) صحيح البخاري ج٢ ص ٧٩.

(٢)شرح أحاديث صحيح البخاري د/ محمد أبو موسى ص ٥٤.

ويذكر أهل العلم أن في الكلام حذفا تقديره: "فلتصبر على ما أصابها، ولتحتسب أجر مصيبتها على الله تعالى([1])، وأرى أن الأنسب حمل الأسلوب على إثبات معنى الفعل للفاعل بصرف النظر عن المتعلق المحذوف، ويكون الغرض من الأمر ديمومة الصبر والاحتساب في هذا الأمر وغيره فليكن هذا هو حال المعزى فيوطن نفسه على الصبر والابتعاد عن التسخط والشكاية والبدار إلى الاحتساب بطلب الأجر من الله – تعالى – وتحصيله.

ويحكى سيدنا أسامة بن زيد صورة الحدث بدقة فيقول: "فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها.."، و"الفاء" تحكى سرعة إيقاع الحدث؛ إذ لا إبطاء ولا تأخر في مثل هذه الأمور، ولذلك حذف من الأسلوب كل ما هو مدلول عليه إذ التقدير: فذهب الرسول فأخبرها فقالت له أرجع وأخبر النبي كذا، فعاد الرسول..." ولاشك أن الحذف واقع موقعه هنا لأن هذه التقديرات التي تلمح في ثنايا الأسلوب تطوى وصولا إلى بؤرة القصد ومحط الاهتمام، وفيها –أيضا – تنشيط لعقل المتلقي فيتشارك في قراءة خيوط الأحداث فيعيش المتلقي الحدث وهذا أدعى للفهم والتدبر وهذا التصرف الأسلوبي جار على طبع اللغة وبلاغتها والتي من شأنها "أن تسقط من الألفاظ ما يدل عليه غيره أو ما يرشد إليه سياق الكلام، ودلالة الحال وأصل بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسامع وتعول على إثارة حسه وبعث خياله وتنشيط نفسه حتى يفهم القرينة؛ ويدرك باللمحة ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير"([2]).

ورسالة الرسول صرحت بالغرض من إخباره (ﷺ) بقرب وفاة ولدها، إذ أصرت على مجئ الرسول (ﷺ) إليها.

---

(١) ينظر: عمدة القاري ج٦ ص ١٠١ وفتح الباري ج٣ ص ٢.

(٢) خصائص التراكيب ص ١٥٣.

وقد يقول قائل: إن كلام النبي (ﷺ) لم يؤثر فيها فلذلك أصرت على مجئ النبي (ﷺ) إليها وليس الأمر كذلك لأن غرضها (رضي الله عنها) من البداية هو مجئ النبي (ﷺ) إليها قناعة منها أن حضور النبي (ﷺ) عندها يخفف ألمها وكربها أو يدفع عن فلذة كبدها ما هو فيه من الاحتضار ببركة دعائه (ﷺ) وحضوره، وهذا يفسر إصرارها على حضوره (ﷺ) إلى الحد الذي جعلها تقسم عليه (ﷺ)، وهذا يدل على فرط الثقة فى بر رسول الله (ﷺ) ليمينها وصدق الصلة بينها وبين النبي (ﷺ) واليقين القاطع بذلك.

ويقوم النبي (ﷺ) إليها "دفعا لما يظنه بعض أهل الجهل أنها ناقصة المكانة عنده"(١)، وهذا يدل على أمر جلل هو أن أعباء الدولة مقدمة عنده (ﷺ) على أموره الأسرية، وحبا في رسول الله (ﷺ) يقوم معه نفر من أصحابه قاصدين بيت بنته (رضي الله عنها) وعلى طريقه سيدنا أسامة في بناء روايته على الإيجاز يصل بالكلام إلى الأحداث المهمة خاصة التي لها تعلق برسول الله (ﷺ) فيقول: (رضي الله عنه): "فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة ففاضت عيناه..."

والرواية قائمة أيضا على الحذف والتقدير كما يقول ابن حجر: "فمشوا إلى أن وصلوا إلى بيتها فاستأذنوا، فأذن لهم، فدخلوا فرفع"(٢).

لكنه أسقط من الكلام ما هو مدلول عليه من السياق وصولا إلى الغرض الأساسي وهو رفع الصبي إلى النبي (ﷺ) واتساقا مع هذا الإيجاز جاء الفعل "رفع" مبنيا لما لم يسم فاعله، تركيزا على الفعل في ذاته بصرف النظر عن فاعله، فلا يتعلق بذكره فائدة.

---

(١) فتح الباري ج٣ ص ٢٠٠.

(٢) فتح الباري ج٣ ص ٢٠١.

وتأتى الجملة الحالية لتبين الحالة التي كان عليها الصبي حالة رفع إليه وهى قوله (ﷺ): "**ونفسه تقعقع كأنها فى شنة**"

ولفظ "تقعقع" أي تضطرب وتتحرك(١)، وهذا اللفظ يحكى حركة الصوت وتكراره فهناك تلازم بين تكرير الصوت في هذه الصيغة، وتكرير الدلالة على المعنى بل إن الكلمة بأجراس حروفها المكررة تحكى هذه الحركة المضطربة.

وزيادة في إيضاح حال هذا الصبي كان هذا التشبيه: "كأنها في شنة"

و"الشنة" الخلق من كل آنية صنعت من جلد، وجمعها شنان وتطلق على القربة البالية اليابسة(٢)، فقد شبه البدن بالجلد اليابس الخلق وحركة الروح فيه بما يطرح في الجلد من حصاة ونحوها(٣)، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تحرك شئ واضطرابه في شئ بال يصحبه صوت معهود، والتشبيه قاصد لبيان الحركة وصوتها.

والغرض من ذكر حال هذا الصبي على النحو الذي يستذرف الدمع، ويوجع القلب هو التهيئة لبيان حال النبي (ﷺ) عندما رفع إليه هذا الصبي في قوله (ﷺ): "ففاضت عيناه".

و"الفاء" هنا سببية فما قبلها سبب فيما بعدها ولا يخلو منها معنى التعقيب والسرعة، فمشاعر النبي (ﷺ) المرهفة، وأحاسيسه الدافقة الدافئة، وقلبه الحي الرحيم، سرعان ما حملت النبي (ﷺ) على هذا البكاء.

---

(١) ينظر: لسان العرب "قعع".

(٢) لسان العرب "شنن".

(٣) ينظر: فتح الباري ج٣ ص ٢٠٠ والكوكب الوهاج ج١١ ص ١١٣ والتوشيح شرح الجامع الصحيح ج٣ ص ١,٧٢، وشرح الأبي على صحيح مسلم المسمى إكمال المعلم. ج٣ ص ٦٧ وما بعدها.

وفى قوله (ﷺ) "فاضت" مجاز مرسل لعلاقة المسببية، فمعنى "تفيض" أي تمتلئ من الدمع حتى تفيض؛ لأن "الفيض" أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو إقامة المسبب مقام السبب(١).

وسر التعبير بيان غزارة الدمع وتواليه إظهارا لشفقة النبي (ﷺ) ومدى حبه لهذا الصبي وتأثره بما هو فيه.

واتساقا مع هذا البيان الدال على شديد انفعال النبي (ﷺ) بهذا الموقف أسند الفعل "فاض" إلى "العين" وهذا مجاز عقلي علاقته المكانية؛ لأن الذي يفيض هو الدمع، ولكن مبالغة في كثرة الدموع وغزارتها وامتلاء العين بها أسند الفيض إليها وكأنها تساقط على خده الشريف هي الأخرى من شدة وجده وحزنه (ﷺ).

وقد ظن سيدنا سعد بن عبادة (ﷺ) أن البكاء منهي عنه فكان هذا الاستفهام منه لرسول الله (ﷺ): "ما هذا يا رسول الله؟" والاستفهام غرضه التعجب والاستغراب، وقد صرحت رواية أبو نعيم بذلك إذ روى "تبكى وتنهى عن البكاء؟"(٢)، ولعل سيدنا سعد بن عبادة يقصد بذلك حديثه (ﷺ): "إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه"(٣).

فقد فهم منه عموم النهى عن البكاء، ولذلك كان الإمام البخاري حريصا دقيقا عندما ترجم للباب بقوله: باب قول النبي (ﷺ): يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته، ثم عطف على هذا الباب قوله: "ومايرخص

---

(١) أخذت ذلك من تفسير الإمام الزمخشري لقوله تعالى: "**ترى أعينهم تفيض من الدمع**" المائدة ٨٣. ينظر: الكشاف ج١ ص ٥٢١ وما بعدها.

(٢) المستخرج على صحيح الإمام مسلم. أبو نعيم الأصفهاني ج٣ ص ١٠٠ رقم ٢٠٦٤.

(٣) صحيح البخاري ج٢ ص ٧٩.

من البكاء في غير نوح "ثم ذكر هذا الحديث فيه، وذكر العيني أن هذا الحديث مطابق لقوله: "وما يرخص من البكاء في غير نوح" فإن قوله: "ففاضت عيناه" بكاء من غير نوح فيدل على أن البكاء الذي يكون من غير نوح جائز فلا يؤاخذ به الباكي ولا الميت(١).

ولذلك صحح النبي (ﷺ) فهم الصحابي فقال: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء".

واسم الإشارة "هذه يشير به النبي (ﷺ) إلى "الدمعة" وتعريفها باسم الإشارة لتمييزها أكمل تمييز وهذا التحديد مقصود هنا في هذا المقام؛ لأن النبي (ﷺ) معني بالحكم على المسند إليه بهذا الخبر "رحمة" حتى يصحح لسيدنا سعد بن عبادة وغيره من الصحابة الكرام أن البكاء من غير نوح غير منهي عنه، ولا يتعارض مع الصبر والرضا بقضاء الله، وقدره، وتقرير الأحكام وبيانها يحتاج إلى هذا التمييز الكاشف حتى يمنح الخبر مزيدا من القوة والتقرير، ولابن القيم تحليل قيم جليل في مجئ حرف الذال للدلالة على الإشارة حيث قال: "وخصت الذال بهذا الاسم؛ لأنها من حرف اللسان والمبهم مشار إليه، فالمتكلم يشير نحوه بلفظه أو بيده، ويشير مع ذلك بلسانه، فإن الجوارح خدم القلب، فإذا ذهب القلب إلى شئ ذهابا معقولا، ذهبت الجوارح نحوه ذهابا محسوسا والعمدة في الإشارة في مواطن التخاطب على اللسان ولا يمكن إشارته إلا بحرف يكون مخرجه من عذبة اللسان التي هي آلة الإشارة دون سائر أجزائه..... وأما دخول "ها" التنبيه؛ فلأن المخاطب يحتاج إلى تنبيهه على الاسم الذي يشير به إليه؛ لأن للإشارة قرائن حال يحتاج إلى أن ينظر إليها،

---

(١) عمدة القاري ج٣ ص ٩٩.

فالمتكلم كأنه أمر له بالالتفات إلى المشار إليه أو منبه له، فلذلك اختص هذا الموطن بالتنبيه"([1]) ، وهذا فهم دقيق لطبيعة هذه اللغة الشاعرة وطاقاتها الهائلة.

وفى قوله (ﷺ) "رحمة" مجاز مرسل علاقته السببية، فالرحمة سبب في هذه الدموع فعبر بالسبب وأريد المسبب، وفى معرض بيان المجاز المرسل في هذا الحديث يبين أستاذنا الدكتور/ صبَّاح عبيد دراز بلاغة هذا المجاز فيقول:

"أما هذا الشعور المقدس للنبي الرحيم (ﷺ) فقد صور الدموع محسوسة معروفة للخيال لونا وحجما وحرارة بصورة سببها الباعث عليها وهو شعور قلبي كريم، تجسيدا للرحمة دافئة بيضاء تنسكب فى انفعال وتأثر تصويرا ذاتيا لمشاعر نبي كريم، ودعوة إلى الرحمة وإباحة للدموع الطاهرة في موقف نبيل"([2]).

وإنما كان هذا البكاء رحمة؛ لأنه يساعد الإنسان على إفراغ شحنات وجدانه فلا يموت كمدا وغيظا، وقد كشفت دراسة علمية حديثة أجراها فريق من الباحثين الأمريكيين النقاب عن أن البكاء يساعد في إخراج السموم من الجسم بالإضافة إلى أنها تخفف من الضغط النفسي والعصبي، ولذلك ينصح الطب النفسي بعدم التردد في البكاء وذرف الدموع، وخاصة في المواقف أو الأحداث المحزنة والمؤلمة فالبكاء راحة للنفس والقلب والجسم([3])، فالحديث الشريف يعد إعجازا طبيا جليلا خاصة أن النبي (ﷺ) نسب إيجاد هذه الرحمة إلى الله (ﷻ) فقال: "**جعلها الله في قلوب عباده**"

---

(١) بدائع الفوائد ج١ ص ٣١٧ وما بعدها.

(٢) السمات البلاغية في البيان النبوي د/ صبَّاح دراز ص ٣٧٥.

(٣) فوائد البكاء. الشبكة العنكبوتية.

وهذه الجملة الوصفية إنما توضح أن هذه الرحمة منة من الله (ﷻ) يجعلها في قلوب عباده الرحماء.

و"جعل" تفسر عند الشراح بـ "خلق"(١) وكما هو مقرر فإن لكل كلمة دلالتها الخاصة وإشعاعها الأنسب للسياق "فكل الكلمات تملك تأثيرا عاطفيا كما تملك تأثيراً إشارياً، ولهذا فمن المستحيل أن تجد مترادفات كاملة"(٢) وهذا الفهم يكون ألزم إذا كانت المفردة واردة في كلام بلاغي مؤثر معجز هو "القرآن الكريم" أو في أعلى طبقات البيان البشرى وهو كلام سيدنا رسول الله (ﷺ)، ولذلك فإن "جعل" هنا أنسب من "خلق"؛ لأن الخلق هو الإيجاد المبدئي من العدم وهو فعل يدل على خاصية إلهية لا يجوز أن تنسب لبشر، أما "جعل" فهو فعل يعنى تقدير أو إنتاج أو إخفاء هيئة معينة وحال معين على شئ تم خلقه فعلا قبلا(٣)، "فالدمع" مخلوق ابتداءً والنبي (ﷺ) يضفى عليه هيئة وصفة معينة فناسب ذلك الفعل "جعل".

ومجئ حرف الظرفية "في" يدل على تمكن هذا "الجعل" في قلوب العباد، والنبي (ﷺ) لا يكتفي بتبرير بكائه بل يحفز ويرغب في هذا البكاء بقوله (ﷺ) "وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"

فالمناسبة ظاهرة بين هذه الجملة "وما قبلها"، إذ وضحت أن من كان كذلك جازاه الله برحمته وهو المعنى بقوله: (ﷺ): "إنما يرحم الله من عباده الرحماء"

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ج٣ ص ١٢٣٢.

(٢) علم الدلالة د/ أحمد مختار عمر ص ٢٢٥.

(٣) أخذت هذا مما ذكره الدكتور فاضل السامرائي في برنامج لمسات بيانية مع الدكتور فاضل السامرائي. على قناة الشارقة الفضائية.

وضد ذلك القسوة في القلوب، الباعثة على الإعراض عن الله تعالى وعن أفعال الخير، ومن كان كذلك، قيل فيه: "فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله"(١).

فغزارة الدمع دون ضجر واعتراض وصياح دليل على صفة الرحمة عند الإنسان تلك الصفة التي من أجلها يكون أهلا لرحمة الله (ﷻ).

وقد صاغ النبي (ﷺ) هذا المعنى في أسلوب القصر، وطريقه هنا – إنما – وهى واقعة موقعها إذ موضوعها "على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة"(٢) فكأن هذا الأمر وهو قصر رحمة الله على الرحماء معلوم ظاهر لا ينازع في ذلك أحد، وهذا القصر من قبيل قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا لأن المراد نفى رحمة الله من كل ماعدا الرحماء، فليس يرحم الله إلا الرحماء.

وإذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن رحمة الله تتسع لغير الرحماء لكن أسلوب القصر جاء في سياق التنويه بصفة الرحمة عند الإنسان فحثا وترغيبا في هذا الخلق قصر رحمة الله عليهم، وكأن غيرهم لا يعتد بهم، فالقصر هنا حقيقي غير تحقيقي، وبذلك يبعد ماقرره أستاذنا الدكتور / صبَّاح دراز من أن القصر هنا قصر قلب والنفي متوجه إلى القساة الأشداء(٣) وكأن المقصور إنما يرحم الله الرحماء لا القساة والبحث يميل إلى عموم النفي فيشمل القساة وغيرهم ممن لا يتصف بهذا الخلق.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. أبو العباس القرطبي ج٣ ص ٢٠٠.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٣٠.

(٣) ينظر: السمات البلاغية في بيان النبوة د/ صبَّاح دراز ص٢٤٢.

وبذلك يكون النبي (ﷺ) قد بين جواز البكاء بل الأمر كما قال ابن القاسم (رحمه الله):" والاعتدال في الأحوال هو المسلك الأقوم، فمن أصيب بمصيبة عظيمة لا يفرط في الحزن حتى يقع في المحذور من اللطم والشق، ولا يفرط في التجلد حتى يفضى إلى القسوة... فالبكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافى الصبر بل ولا الرضي"(١) ولم لا يكون ذلك؟! وهذا رسول الله (ﷺ) وهذا فعله.

والله أعلم

(١) حاشية الروض المربع شرح زاد المستنقع. ابن قاسم الحنبلى. ج٣ ص ١٥٣.

الحديث الثاني

التعزيـــة بالجـــنان

عن قرة المزني (رضي الله عنه) قال: "كان نبي الله (ﷺ) إذا جلس يجلس إليه نفـــر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهـــره، فيقعـــده بـــين يديه، فقال له النبي (ﷺ): تحبه؟ فقال: يا رسول الله أحبك الله كما أحبه فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة، لذكر ابنه، فحزن عليه ففقده النبي (ﷺ) فقال: مالي لا أرى فلانا؟ فقالوا: يا رسول الله بنيه الذي رأيته هلك فلقيـــه النبـــي (ﷺ) فسأله عن بنية؟ فأخبره بأنه هلك، فعزاه عليه ثم قال: يا فلان أيما كـــان أحب إليك: أن تمتع به عمرك أو لا تأتى غدا إلى باب مـــن أبـــواب الجنـــة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟ قال: يا نبي الله: بل يسبقني إلى باب الجنـــة، فيفتحها لي لهو أحب إلى، قال: فذلك لك"(١). صدق رسول الله (ﷺ).

التعزية في هذا البيان النبوي من رسول الله (ﷺ) لأحد صحابته الذي مات له ولد، لم تكن بكلمات فقط، فمصاب الرجل في فلذة كبده شديد لذلك، ضم (ﷺ) إلى العزاء بالألفاظ عزاءً بالصورة إذ نقل النبي (ﷺ) الرجل من مأساته في هذه الدنيا إلى مشهد من مشاهد الآخرة، حيث صورة الولد الذي يفـــتح لـــه أبـــواب الجنة، وهذا اللون من العزاء يعين على الصبر ويخفف من شدة المصيبة، وهو أوقع في النفس من الكلمات.

---

(١) سنن النسائي ت. الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. كتاب (الجنائز) "باب التعزية" ج٤ ص ٢٢ حديث رقم ٢٠٨٨. واللفظ له، وأخرجه الإمام أحمد في المسند. ت. الـــشيخ/ شـــعيب الأرناءوط وآخرين. ج٣٣ ص ٤٧٣ رقم ١٠٣٦٥ وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص ٢٠٥.

لقد رأى النبي (ﷺ) علامات الحب الفطري بين الأب وابنه الصغير فيوجه له هذا الاستفهام: تحبه؟

ونلاحظ على هذا الاستفهام أمرين:

الأول: حذف همزة الاستفهام والتقدير: (أتحبه)، ومن خصائص الهمزة حذفها تخفيفا(١). وقد جاء التصريح بها في رواية أخرى: أتحبه؟!(٢).

الثاني: أن الاستفهام هنا غير حقيقي؛ لأن النبي (ﷺ) يعلم حبه له، وأمارات ذلك الحب واضحة، كما حكى الراوي، فالابن صغير، يحتفي به والده، ويداعبه، يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه، حبا فيه، واحتفاء به، ولذلك فهذا الاستفهام خرج إلى غرض بلاغي هو التقرير "والتقرير في هذا الاستفهام ليس المراد به التقرير الذي يحمل المخاطب على الإقرار بأمر ينكره أو يعارضه فيه، وإنما هو التقرير الذي يعنى التحقيق والتوكيد"(٣)ولذلك كانت إجابة الرجل ببيان مقدار هذا الحب وفى هذا السؤال أيضا مؤانسة وملاطفة لهذا الرجل.

ويموت الولد، ويفتقد النبي (ﷺ) هذا الوالد فيسأل عنه رسول الرحمة (ﷺ) فيقول: "مالي لا أرى فلانا".

وهذا الاستفهام فيه معنى التعجب؛ لأن الرجل كان حريصا على حضور مجالس العلم مع سيدنا رسول الله (ﷺ)، ولذلك جاءت صياغة الاستفهام معبرة عن هذا المعنى، إذ بدا الكلام وكأن المانع من الرؤية راجع إلى رسول الله (ﷺ): "ما لي لا أرى" وهذا يدل على أن الرجل ما كان ليغيب إلا لأمر جلل، فالسؤال يحمل قدرا من التعجب لغياب هذا الرجل.

---

(١) ينظر: المحتسب. ابن جنى ج٢ ص ٢٠٥.

(٢) مرقاة المفاتيح ج٣ ص ٢٥٣.

(٣) دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ص ٢٢٣.

و"فلان" يكنى به عن أسماء الآدميين للذكر والأنثى سواء لايثني ولا يجمع(١)، وقد استقام التعبير عن هذا الصحابي في هذا النص النبوي بصيغ الإبهام ففي بداية النص يقول الراوي "وفيهم رجل له ابن صغير" فنكره ولم يعرفه، وهنا النبي (ﷺ) يدل عليه بـ "فلان" وأرى أن الداعي لذلك عدم الفائدة من ذكره وفى ذلك إشارة إلى أن هذا الصحابي لم يكن من الصحابة المعروفين المشهورين بل كان من عامتهم الذي إذا غاب لم يفقد وإذا حضر لم يعرف، ومع ذلك رسول الرحمة (ﷺ) يسأل عنه عندما غاب ويواسيه، وهذا من أسس ديننا الحنيف التي لا تفرق بين غنى وفقير، رئيس ومرؤوس قريب أو بعيد في القيام بمثل هذه الحقوق والواجبات وهذا من شأنه زيادة الترابط والمحبة بين أفراد المجتمع الإسلامي عامة.

وهذا الاستفهام التعجبي كان موجها إلى الصحابة (رضي الله عنهم) لذلك أجابوا النبي (ﷺ) بما يزيل عجبه فأخبروه بهلاك ولد هذا الرجل، فلما لقيه النبي (ﷺ) سأله عن بنيه؟ ونلاحظ أن النبي (ﷺ) يسأله عن أمر هو معلوم له فا لنبي (ﷺ) يعلم بوفاة ولد هذا الرجل ولذلك أرى أن هذا السؤال من رسول الله (ﷺ) كان على سبيل الاستيقان؛ لأن الأمر أمر تعزية فأراد أن يستيقن منه قبل تعزيته (ﷺ).

وجاء التعبير عن الولد بوصف التصغير بالصفة تارة كما في قول الراوي: "رجل له ابن صغير"، أو من خلال تصغير كلمة "ابنه" وهى "بنيه" التي وردت مرتين فى هذا النص النبوي، وفى هذا التصغير معنى الترحم، والتلطف وإظهار الشفقة، وكذلك الاختصار اللفظي فكلمة "بنيه" أغنت عن: ابنه الصغير.

---

(١) الجني الداني ص ٢٩٦.

ولما أجاب الرجل بهلاك ولده عزاه النبي (ﷺ) يقول الراوي: "فعزاه عليه ثم قال: يا فلان....".

قوله "فعزاه عليه" أي دعا له: بأن يحسن الله عزاءه، أي يرزقه الصبر على مصيبته، وهذا يدل على استحباب التعزية عند المصيبة(١)، ودلت "الفاء" على مبادرته (ﷺ) بهذه التعزية فالفاء تحكى واقع الحدث بدقة، و"ثم" عطفت قوله: "يا فلان"...إلى آخره" على التعزية، وهذا يدل على التراخي الرتبي الذي دل علي تعظيم هذه البشرى التي ساقها النبي (ﷺ) لهذا الصحابي المكلوم، ولعل النبي (ﷺ) لما عزاه أولا أحس بأن هذه التعزية غير كافية في تهدئة هذا الصحابي لاشتعال قلبه حزنا على وفاة فلذة كبده الصغير، فأتبعه لونا آخر من التعزية لا يملك المسلم معه إلا التسليم والصبر والرضا.

وقد بدأ بيانه (ﷺ) بهذا النداء: يا فلان، إثارة منه (ﷺ) وتنبيها لهذا الرجل المكلوم لما سيلقى عليه بعد النداء، فيجمع له قلبه، ويفتح له عقله، وهذا ينبه على مكانة الخبر الذي سيأتي بعد، ومعلوم أن "يا" لنداء البعيد"(٢) فإذا نودي بها القريب كان ذلك تنبيها على مكانة الخبر، يقول جار الله الزمخشري: "فإذا نودي بها – أي – بـ "يا" القريب المقاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنى به جدا"(٣).

---

(١) ينظر: شرح سنن النسائي المسمى ذخيرة العقبى في شرح المجتبى. الشيخ/ محمد الأتيوبي الولوي. ج٢. ص ١٩٥.

(٢) ينظر: معنى اللبيب ج٢ ص ٧٩٣.

(٣) الكشاف. ج١ ص ٢٠٩.

وقد ذكر ابن هشام أن "يا" قد ينادى بها القريب توكيدا(١)، ولعل منشأ هذا التوكيد راجع إلى ما يحدثه النداء من إثارة وانتباه في نفس المخاطب مما يجعله يتلقى الخبر على قدر عال من الإيقاظ والإحساس وهذا أثبت في تقرير المعنى وتمكينه في الذهن، وهذا ما يؤول إليه كل تأكيد.

وبعد أن استرعى انتباه هذا الرجل يواجهه بهذا السؤال الحاسم "أيما كان أحب إليك أن تمتع به عمرك، أولا تأتى غدا إلى باب من أبواب الجنة إلاوجدته قد سبقك إليه، يفتحه لك؟" و" أي" استفهامية يطلب بها التعيين(٢) وأضيفت إلى "ما" الموصولة(٣).

ويحقق ابن القيم معنى "أي" من خلال الربط بين معنى الحرف ومادته اللغوية فيذكر أن لفظ "ألف" و"ياء" مكررة راجع في جميع الكلام إلى معنى التعيين والتمييز للشئ من غيره، فمنه: "إياة الشمس" لضوئها؛ لأنه يبينها ويميزها من غيرها، ومنه "الآية": العلامة... ولهذا اختصت "أي" بنداء ما فيه "الألف واللام" تمييزا له وتعيينا، وكذلك: أي زيد، ومنه: إياك المراء والأسد، أي: ميز نفسك وأخلصها عنه، ومنه: وقوع "أي" تفسيرا كقولك: "عندي عهن" أي: صوف(٤).

وهذا التحليل الفذ لمفردات هذه اللغة الشريفة يدل على عبقرية الأداء وغزارة العطاء ولم لا وهى لغة كتاب الله (ﷻ)؟! فحروفها معنى وأصواتها مغنى.

---

(١) مغنى اللبيب ج٥ ص ٧٩٣.

(٢) ينظر: السابق ج١ ص ٩١.

(٣) ينظر: شرح سنن النسائي ج١٠ ص ١٩٥.

(٤) ينظر: بدائع الفوائد ج١ ص ٢٧٨، وما بعدها.

وهذا الأسلوب الإنشائي فيه معنى المفاجأة للمخاطب، فالرجل يعزى فيواجه بهذا السؤال من رسول الله (ﷺ)"، وتزداد الإثارة ويقوى الانفعال عندما يكون هذا الاستفهام أداته "أي" التي يطلب بها التعيين والاختيار فيزداد تعلق الرجل بمعرفة ذلك وتأتى "ما" الموصولة التي لا يتم معناها إلا بجملة الصلة فيزداد شوقه إلى ما يزيل إبهامها ويتمم معناها، فيقع له أفعل التفضيل "أحب" فيزداد الشغف، وتعمق الإثارة؛لأن عنصري الاختيار بين أمرين محببين له لكن أحدهما أحب له، فلا يستقر للنفس حالها، ولا يروي ظمؤها إلا بعد أن ينتهي إلى آخر صوت من كلام سيدنا رسول الله (ﷺ) فلا يبقى له تشوق بعد ذلك.

فهذا الأسلوب الإنشائي المكون من أكثر من جملة بمثابة الكلمة الواحدة التي تخرج في نفس واحد، فلا ننطق بأداة الاستفهام "أي" إلا وقد أتينا على آخر الأسلوب بكل مكوناته، وما ذلك إلا لارتباط الكلم بعضه ببعض حتى أضحى بنية واحدة موحدة الأجزاء متناسبة الدلالات، وهذا ليس أمرا عاديا في النظم لأن من الكلام "ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك لا يبغى أكثر من أن يمنعها التفرق، وكمن نضد أشياء بعضها على بعض، لا يريد في نضده ذلك أن تجئ له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأى العين، وذلك إذا كان معناك معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظا على مثله"(١) غير أن كلام سيدنا رسول الله (ﷺ) يدق ويجل عن هذا المستوى من النظم، بل هو من النمط العالي الذي عناه عبد القاهر بقوله: "وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام، وهو ما تتحد أجزاؤه حتى

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٦ وما بعدها.

يوضع وضعا واحدا، فاعلم أنه النمط العالى والباب الأعظم، والذي لاترى سلطان المزية يعظم في شئ كعظمه فيه"([1]) بل إن أسلوب النبي (ﷺ) مما ندر من هذا النمط "ولطف مأخذه ودق نظر واضعه وجلي لك عن شأو قد تحسر دونه العتاق، وغاية يعيى من قبلها المذاكي القرح"([2]) كما قال الإمام.

وتتزاحم النكات البلاغية في هذا الأسلوب، وتلقانا "كان" وأرى أنها زائدة بين "ما" الموصولة وجملة الصلة "أحب" وليس معنى القول بالزيادة أنها لا فائدة فيها كيف وأسلوب النبي (ﷺ) ينزه عن الحشو؟! وتأسيسا على ذلك فإن "كان" هنا أتت لغرض بلاغي هو التأكيد، يقول ابن يعيش عن "كان" الزائدة: "وإنما تدخل لضرب من التأكيد" فـ "كان" لما كانت عريقة في الدلالة على الماضي نشرت معنى التحقيق والتأكيد على ما دخلت فيه، فهي تؤكد على وجود العنصرين المطلوب الاختيار بينهما وتعيين أحدهما، وكلمة (أحب) أفعل تفضيل، فالأمران التمتع بالولد عمر الرجل، والأخذ بيده إلى الجنة في الآخرة كلاهما محببان لكن أحدهما أكثر حبا في قلب هذا الرجل والنبي (ﷺ) يطلب منه تعيين أحدهما.

وبدأ النبي (ﷺ) حديثه عما هو قريب إلى نفسه، محبب إلى قلبه، مزيل لألمه، وهو التمتع بولده عمره كله، قال (ﷺ): "**أن تمتع بـه عمـرك**".

وقد جاءت هذه الجملة مصدرة بـ "أن" المصدرية التي تؤول مع ما بعدها بمصدر والتقدير "التمتع" وفى دخول "أن" على الفعل دون التعبير بالمصدر مع أنه أوجز فائدة هي "أن المصدر قد يكون فيما مضى، وفيما هو آت، وليس في صيغته ما يدل عليه، فجاءوا بلفظ الفعل المشتق منه مع "أن" ليجتمع لهم الإخبار

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٥ وما بعدها.
(٢) السابق والصفحة.

عن الحدث مع الدلالة على الزمان"(١) فالعدول عن المصدر الصريح إلى المصدر المؤول أفاد إلى جانب الحدث الدلالة على زمن الفعل، و "أن" إذا دخلت على الفعل المضارع محضته للاستقبال(٢).

كما هو الحال هنا – فالفعل المضارع "تمتع" أوقع في النفس إذ فيه استحضار لصورة التمتع أمام أعين الرجل.

وجاءت صياغة الفعل بحذف "التاء" إذ الأصل "تتمتع"(٣) والتعبير النبوي تعبير فني مقصود، فكل حذف إنما وضع لقصد وسر بلاغي، فحذف "التاء" والاكتفاء بإحدى التاءين للدلالة على قصر هذا التمتع، وأنه تمتع منقوص لأنه منغص بالموت، فالاقتطاع من الفعل (تمتع) للدلالة على الاقتطاع من الحدث(٤)، خاصة أن النبي (ﷺ) جعل لهذا التمتع غاية، وهو مدة حياته ومهما طالت فهي قصيرة.

وقدم المتعلق "به" على قوله "عمرك"؛ لأنه أوثق صلة بغرض الكلام وسياقه، إذ فيه الضمير الراجع إلى الصبي المتوفى، ولاشك أن الرجل في لهفة شديدة لإيقاع هذا التمتع عليه فهذا التقديم مناسب لحالته النفسية، والشعورية.

وبذلك يكون النبي (ﷺ) قد عرض عليه خياره الأول في أوضح معنى وأوجزه.

---

(١) بدائع الفوائد ج١ ص ١٦٠ وما بعدها.

(٢) ينظر: المقتضب ج٢ ص ٢٩، ونتائج الفكر ص ٩٦.

(٣) شرح سسن النسائي ج١٠ ص ١٩٦.

(٤) أخذت ذلك المعنى من كتاب: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني د/ فاضل السامرائي. ص ٩.

ثم يعرض عليه النبي (ﷺ) خياره الثاني في قوله: "أو لا تأتي غدا إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟.

و "أو" تدل هنا على التخيير وهو معنى من معانيها(١).

وقد جاء المعنى هنا في أسلوب قصر طريقة النفي والاستثناء حيث قصر مجيئ الرجل إلى باب الجنة على وجود ولده سابقا ليفتح له باب الجنة وهو قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا فهذه الصفة محققة له ولأمثاله من المكلومين لا تتعداهم إلى غيرهم.

والسر في مجئ القصر الذي هو أقوى أساليب التوكيد راجع إلى أهمية الخبر في ذاته ورغبة النبي (ﷺ) في تقوية مضمون الكلام عند الرجل المكلوم وتقريره في نفسه وإن كان غير منكر له، لاحتياج نفسه الحزينة، وفؤاده المكلوم إلى ذلك ؛ لتتكاثر عليه روافد الطمأنينة وشآبيب الرضي، فتهدأ نفسه وتسكن.

ويلاحظ على الصياغة الجزئية لأسلوب القصر السابق مجئ "تأتى" وهى أنسب من "جاء" فكلاهما يشتركان في الدلالة على القدوم والإقبال غير أن بينهما فروقاً تتكشف عند التأمل، إذ غلب على الإتيان أن يكون في المجئ الذي فيه سهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتى و أتاوي، وأتيت الماء تأتية وتأتيا أي سهلت سبيله(٢).

أما "المجئ" فيأتي لما فيه صعوبة ومشقة، ولعل ذلك يعود إلى لفظ كل من الفعلين، فـ "أتى" أخف من "جاء"، ومما يدلنا على ذلك أن أتى يؤخذ منها

---

(١) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني ص١٣١، والجني الداني في حروف المعاني ص٢٢٨.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن ص ٨، والعين ج٨ ص ١٤٦ ودقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني د/ محمد خضر الدوري ص ٢٢٩.

الأزمنة الثلاثة وكلها وردت في القرآن الكريم، في حين وردت "جاء" ملازمة حالة واحدة وهى أن تأتى بزمن الماضي في القرآن الكريم، ولذلك نجد "أتى" مستعملة في الأمور التي يتوصل إليها بسهولة أو تكون في سياق تتساب فيه المعاني بخفة وسهولة([1]).

وذلك كالحال هنا فـ "تأتى" تدل على سهولة مشيه وانسيابه إلى أبواب الجنة، كأنها تجذبه إليه جذبا، ومجئ الفعل "تأتى" على صيغة المضارع فيه سياحة بعقله إلى هذا المشهد الجليل، فكأنه بهذه الصيغة قد أخرج الرجل من محيطه الزماني والمكاني وحلق به في عوالم الآخرة خاصة أنه جعل لهذا الإتيان ظرفا هو "غدا" وهو في الأصل "اليوم الذي يأتي بعد يومه"([2])، وهو هنا كناية عن قرب وقوع هذه البشرى ولذلك قدم هذا الظرف على غيره من متعلقات الجملة؛ إذ قرب وقوع هذه البشرى يلامس شغاف قلب الرجل المكلوم، وذلك أهنأ له وأسعد.

والجملة "تأتى غدا إلى باب من أبواب الجنة" فيها كل الفضل وكل الخير إلا أن الكريم وهو الله (ﷻ) يجمع على قلب هذا الرجل فرحتين: فرحة دخوله الجنة وفرحة لقاء ولده الذي يفتح له باب الجنة فيكون قد فاز بكل ما يحب.

وجملة "وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك" قد صيغت مؤكدة بدءا من الفعل "وجدته" مع إمكانية الاستغناء عنه؛ لأنه مدلول عليه، إلا أن مجيئه أفاد التأكيد على حدوث هذا الأمر له، كما أن التعبير بهذه الصيغة مناسب لحال الصحابي الذي يحس بضياع ولده وفقده، وتأتى "قد" المفيدة للتحقيق([3])، لتحقق وقوع

---

(١) ينظر: دقائق الفروق اللغوية ص ٢٢١ وما بعدها.

(٢) لسان العرب (غدو).

(٣) ينظر: رصف المباني في شروح المعاني. المالقي ص٣٩٢.

هذا الفعل "سبقك" وصياغته الماضية تنبئ أن هذا السبق إنما حصل وكان والنبي (ﷺ) يخبر عنه، وإمعانا في استحضار الصورة لم يتركه النبي (ﷺ) إلا وقد أراه ولده يفتح له باب الجنة، فالفعل المضارع "يفتح" يحكى صورة قبل أن يحكى معنى، وهذا أوقع وأكثر تأثيرا في نفس الرجل المكلوم، وجملة (يفتحه لك) جملة حالية، وقد اهتم الإمام عبد القاهر بدراسة جملة الحال وبلاغة اقترانها بالواو أو تجردها منها، يقول الإمام: "واعلم أن أول فرق في الحال أنها تجئ مفردا وجملة، والقصد هنا إلى الجملة، وأول ما ينبغي أن يضبط من أمرها أنها تجئ تارة مع الواو وأخرى بغير الواو...، وفى تمييز ما يقتضى الواو مما لا يقتضيه صعوبة"(١).

وبحس الإمام المرهف وألمعيته الذكية وإدراكه الواعي لأسرار اللغة يبين الفروق الدلالية بين مجئ جملة الحال بالواو تارة ومجيئها بدونها تارة أخرى فيقول: "فاعلم أن كل جملة وقعت حالا، ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالا ثم اقتضت الواو، فذاك لأنك مستأنف بها خبرا، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات، تفسير هذا: أنك إذا قلت: "جاءني زيد يسرع"، كان بمنزلة قولك "جاءني زيد مسرعا" في أنك تثبت مجيئا فيه إسراع، وتصل أحد المعنيين بالآخر وتجعل الكلام خبرا واحدا وتريد أن تقول: جاءني كذلك وجاءني بهذه الهيئة... وإذا قلت: جاءني وغلامه يسعى بين يديه ورأيت زيدا وسيفه على كتفه، كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجئ والرؤية ثم استأنفت خبرا وابتدأت إثباتا ثانيا لسعى الغلام بين يديه

(١) ينظر: دلائل الإعجاز ص ٢٠٢.

ولكون السيف على كتفه ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجئ بالواو"([1]).

ويتبين من ذلك أن الجملة الحالية حين تتجرد من الواو تصبح في حكم المفردة وتتصل بالجملة التي هي قيد فيها اتصالا ذاتيا؛ لأنها حينئذ تكون الغرض الخاص الذي يتجه إليه المعنى ويزجى القول فيه([2])، فجملة "يفتحه لك" بدون الواو تدل على أن القصد من الكلام والغرض الأساسي فيه ليس وجود الولد فحسب وإنما وجوده حال كونه فاتحا لوالده باب الجنة ويؤكد الإمام على هذا المعنى لكن من منظور آخر وهو كون جملة الحال فضلة فيقول: "وجملة الأمر أنه ما من كلام كان فيه أمر زائد على مجرد إثبات المعنى للشيء إلا كان الغرض الخاص من الكلام والذي يقصد إليه ويزجى القول فيه فإذا قلت: "جاءنى زيد راكبا"، و"ماجاءني زيد راكبا" كنت قد وضعت كلامك لأن تثبت مجيئه راكبا أو تنفى ذلك، لا لأن تثبت المجئ وتنفيه مطلقا هذا مالا سبيل إلى الشك فيه"([3]).

ويزداد عطاء هذه الجملة (يفتحه لك) فهو ليس مجرد فتح وإنما فتح خاص به وهذا ما نشرته (اللام) في قوله (ﷺ): "لك" لأنها تدل على الملكية والاختصاص([4])، وهذا هو الفرق بين أن يقال (يفتحه) على الإطلاق وبين أن يقال: "يفتحه لك" بهذا القيد.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: الواو ومواقعها في النظم القرآني د/ محمد الخضري ص ٤٧٤ مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٢٨٠.

(٤) الجني الداني ص ٩٦٠.

وبذلك يكون النبي (ﷺ) قد وضع أمام الرجل الخيارين في أوضح لفظ وأوجزه من خلال المقابلة المعنوية بين الدنيا وزينتها والمدلول عليها بقوله: "أن تمتع به عمرك"، وبين الآخرة وثوابها العظيم الدائم الذي لا ينقطع والمدلول عليها بقوله: "قد سبقك إليه يفتحه لك".

ولذلك جاءت إجابة الرجل واضحة قوية تعكس حسمه لأمره وعدم تردده في اختياره: "قال: يا نبي الله بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي لهو أحب إلى".

وقد استهل الصحابي إجابته بنداء النبي (ﷺ) "يا نبي الله" ومعلوم أن "يا" لنداء البعيد(١)، فإذا نودي بها القريب كان ذلك تنبيها على مكانة الخبر فالصحابي معنى ببيان حاله، وتوضيح خياره عند رسول الله (ﷺ) فلما كان مظنة الركون الرجل إلى الدنيا، جاءت إجابته حاسمة شافية تكاثرت فيها عناصر التوكيد، ومنها النداء (يا نبي الله)، كما أن في هذا النداء تأدبا مع رسول الله (ﷺ) لأن نداءه بصفة النبوة خاصة دون الرسالة مناسب لمعاني الحديث، حيث أخبره النبي (ﷺ) بما ينتظره من عظيم الثواب عند الله في الآخرة، وهذا نبأ عظيم ووحي من الله أخبر به الصادق المصدوق فكان نداء النبي (ﷺ) بهذا النداء مناسب أتم المناسبة، وحتى يبعد عن نفسه الريبة أتى بـ (بل) التي تفيد الإضراب والإبطال(٢)، فهو لا يكتفي ببيان ما هو أحب إليه بل يبطل الأخر ويضرب عنه فـ (بل) هنا "حرف ابتداء كلام وإضراب عن كلام مقدر

(١) ينظر: مغنى اللبيب ج٢ ص ٧٩٣.

(٢) ينظر: الجني الداني في حروف المعاني ص ٢٣٥ ورصف المباني في شرح حروف المالقي ص ١٥٤ وما بعدها.

مخالف لما هي فيه"([1]) ، واتساقا مع التأكيد الذي هو لحمة إجابته وسداه ذكر في الجملة ما هو مدلول عليه ويمكن حذفه كأن يقول: "بل يسبقني إلى بـــاب الجنـــة فيفتحه لي" لكن تأكيدا منه على هذا الاختيار ذكر هذه الجملة "لهو أحب إلـــي" وأتى بلام القسم لتتكاثر عناصر التأكيد.

ولأن الجزاء من جنس العمل أجابه النبي (ﷺ) بقوله: "فذلك لك" و"الفـــاء" فصيحة أفصحت عن شرط مقدر والتقدير: "إذا كان الأمر كذلك فذلك لك" وإنما حذف تعجيلا بذكر ماتعلقت نفس الصحابي به من بشراه بلقيا ولده علـــى بـــاب الجنة ورحم الله الأستاذ/ أحمد حسن الزيات عندما تحدث عن الإيحاءات التـــي يتركها الإيجاز بالحذف على الأسلوب فقال: "والمزية الظاهرة للإيجـــاز علـــى الإطناب أنه يزيد في دلالة الكلام من طريق الإيحاء ؛ ذلك لأنـــه ينـــزل علـــى أطراف المعاني ظلالا خفيفة يشعل بها الذهن ويعمل فيها الخيال حتـــى تبـــرز وتتلون وتتسع"([2]).

واسم الإشارة "ذلك" لتمييز المشار إليه وهو "سبق ولده إلى الجنـــة ليفـــتح لوالده الباب" أكمل تمييز كما أن هذه الإشارة أجملت ما فصله النبي (ﷺ) قـــبلا والإشارة هنا إنما تستعمل للبعيد، وفى استعمالها هنا لإظهار رفعة شـــأن هـــذا الجزاء بجعله بعيد المنزلة، فكانت هذه الجملة "فذلك لك" أوجز عبـــارة وخيـــر انتهاء وأحسنه.

---

(١) رصف المباني ص ١٥٧.

(٢) دفاع عن البلاغة أ/ أحمد حسن الزيات ص ٩٩.

تعقيب:

كان الحوار هو أداة التشكيل لما جاء في البيان النبوي السابق من أساليب، وأسلوب الحوار من أبرز الأساليب الحكيمة والبليغة التي استعملها النبي (ﷺ) في إقامة هذا الدين الحنيف؛لأن الحوار أساس التواصل بين الناس، ومتى تقلصت لغة الحوار فإن المشاعر تذبل والقلوب تتباعد وقد كان قوام الحوار عند النبي (ﷺ) الصدق والإقناع العقلي، وإقامة الحجة، والحكمة، والموعظة الحسنة، واللسان الطيب، والقلب الرحيم، حتى يصل بالمحاور إلى ارتياح نفسي واطمئنان وجداني وقناعة تامة، وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى لغة الحوار الهادئ الصادق الذي ينتهي عنده كل مشكلاتها بإذن الله تعالى، نسأل الله أن يهيئ لها من أمرها رشدا. اللهم آمين.

وقد جاء في هذا الحديث الشريف الفعل "قال" سبع مرات أربعا منها بالفاء (فقال) واثنتين بدونها (قال) ومرة بـ (ثم)، وفصل أقوال المحاورين ووصلها "بالفاء" أو "ثم" إنما يخضع لمتطلبات السياق، ومناسبة المقام، فإذا جاء فعل القول معطوفا بـ (ثم) فذلك بيانا للمهلة والوقت الحادث بين فعل القول وما قبله أو لبيان التراخي الرنبي وإذا جاءت "الفاء" مع فعل القول فللإشارة إلى توالى الأحداث على وجه يخدم سرعة القص ويربط بين الأسباب ومسبباتها، وهذا المعنى راجع إلى طبيعة الفاء وما تدل عليه من الإسراع والتعقيب، فما جاء معطوفا "بالفاء" روعي فيه خصوصية فى القول توجب ارتباطه بالأول ارتباط التابع بمتبوعه، فتدخل "الفاء" للدلالة على أن المعطوف مسبب عما قبله، وليس مستقلا عنه(١).

---

(١) ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء" و"ثم" د/محمد الأمين الخضري ص١٠٥ وما بعدها.

ويزيد الدكتور/ محمود توفيق سعد بيان هذه الخصوصية فيقول: "فالفاء حين تقرن بفعل القول في باب المحاورة، إنما يرمى بها إلى إبراز أن هذا القول ما كان له أن يكون إلا لما سبقه من قول إيماء إلى شديد استدعاء المقام له، فضلا عن إبراز عنصر التعقيب وأنه قول لم يتكلف له قائله، وأن داعيه كان أقوى من أن يحمل المرء مؤنة الصبر عنه"(١).

وأما ما جاء من فعل القول مفصولا فيعلل الإمام عبد القاهر لمجيئه فيقول: "واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف..... جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال، فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم "دخل قوم على فلان فقالوا كذا"، أن يقولوا: "فما قال هو؟" ويقول المجيب: "قال كذا"، أخرج الكلام ذلك المخرج؛ لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه"(٢) وهذا تعليل سديد لما جاء مفصولا في باب المحاورات، وهو ما يعرف بالفصل لشبه كمال الاتصال.

ولا شك في أن حذف السؤال المقدر في المحاورة يوفر للأسلوب دقة وإيجازا وإحكاما، ويحدث بين أجزاء الكلام ترابطا داخليا " فالجملة الأولى تثير في النفس خواطر وهواتف فتأتى الثانية مجيبة عن هذه الخوالج وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة في الجملة الأولى، وهكذا يتوالد الكلام، وتتناسل الجمل، ثم إن طى هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ضربا من وجازة الكلام واختصاره ودمجه واكتنازه"(٣).

---

(١) فقه بيان النبوة: منهجا وحركة أ.د/ محمود توفيق سعد ص ٣١.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٤٠.

(٣) دلالات التراكيب ص ٣١٢.

ويلمح السكاكي بلاغة الفصل في المحاورة من خلال السؤال المقدر فيقول:" وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه أو لإغنائه أن يسأل أو لئلا يسمع منه شئ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العطف أو غير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك"(١).

ويسلم الطاهر ابن عاشور بذلك فيعلل لحذف العاطف فيقول:" وإنما حذفوا العاطف في أمثاله كراهية تكرار العاطف بتكرير أفعال القول، فإن المحاورة تقتضى الإعادة في الغالب فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع وهو كثير في التنزيل وربما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضى مخالفة الاستعمال وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل وهذا مما لم أسبق إلى كشفه من أساليب الاستعمال العربي"(٢).

وأرى أن في كلام الإمام الطاهر نظر وأن الأمر كما ذكرت راجع لاختلاف المقامات ونسق الجمل والعلائق الجامعة بينهما "فالفاء" لها مواضعها التي تستدعى فيها ولا يسد غيرها مسدها وتركها ومجئ الكلام مفصولا يكون – أيضا – لحاجة الأسلوب لذلك ولكل مقام مقال.

والله أعلم

(١) مفتاح العلوم. ص ٢٠٢.

(٢) التحرير والتنوير. ج١ ص ٤٠١.

الحديث الثالث

التعزية بالدعاء للميت

عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: دخل رسول الله (ﷺ) على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال:" إن الروح إذا قبض تبعه البصر" فضج ناس من أهله، فقال: "لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون" ثم قال: "اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه في عقبه فـي الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه"(١). صدق رسول الله (ﷺ).

تأخذ التعزية في هذا البيان النبوي مضمونا آخر هو الدعاء للميت فالدعاء من رسول الله (ﷺ) في لحظة الوفاة يدخل الطمأنينة والسكينة فى قلوب أهله، ويبعدهم عن اقتراف ما يغضب الله (عز وجل) فهو أعظم تسلية لأهل المصاب فضلا عن حاجة المتوفىَّ الشديدة لهذا الدعاء.

وموت الصحابي الجليل أبى سلمة كان سببا فى ورود أحاديث كثيرة تتعلق بالتعزية وآدابها والمناهي التي قد يقع الإنسان فيها، فالنبي (ﷺ) تارة يتوجه بالحديث لأم سلمة فيقول فيما روته أم سلمة عنه: "ما من عبد مسلم تصيبه مصيبة فيقول: ما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها" قالت" فلما مات أبو سلمة قالت: أي المسلمين خير من أبى سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله (ﷺ) ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله (ﷺ)"(٢).

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الجنائز. باب ما يقال عند المريض والميت ج٢ ص ٣٤١ رقم ٩٢٠.

(٢) صحيح مسلم ج٢ ص ٦٣١ رقم ٩١٨.

وقد كاد أن يحدث في موت هذا الصحابي مالا يرضاه الإسلام؛ حيث تروى لنا أم سلمة فتقول: "لما مات أبو سلمة قلت: غريب وبأرض غربة، لأبكينه بكاء يتحدث عنه، قالت: فتهيأت للبكاء، وجاءت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدني فلما رآها رسول الله (ﷺ) تلقاها وقال: "تريدين أن تدخلي الشيطان بيتا قد أخرجه الله منه أتريدين أن تدخلي الشيطان بيتا قد أخرجه منه" قالت أم سلمة فتركت البكاء فلم أبك"(١).

فقد تعددت وقائع التوجيه النبوي في موت هذا الصحابي ومنها هذا الحديث حيث دخل النبي (ﷺ) على أبى سلمة وقد فارق الحياة وشخص بصره فأغمضه النبى (ﷺ) ثم قال: "إن الروح إذا قبض تبعه البصر" وقد جاءت هذه الجملة علة للإغماض "ي كأنه قال أغمضته؛لأن الروح إذا فارق فى الذهاب فلم يبق لانفتاح بصره فائدة"(٢) والتغميض سنة ومقصوده تحسين وجه الميت وستر تغير بصره(٣)، فالنبي (ﷺ) يعلل لفعله إقناعا وتوجيها وتربية للأمة مع أن الصحابة يتلقون أفعال النبي (ﷺ) بالقبول لكن النبي (ﷺ) يحترم العقل ويعلى من شأن التفكير والإقناع فيسوق الفعل بالدليل.

وقد بدأ النبي (ﷺ) بـ "إن" التي أشربت التعليل معنى التوكيد وكأن النبي (ﷺ) حين أغمض عيني أبى سلمة (رضي الله عنه) تطلعت النفوس من حوله إلى معرفة سبب ذلك، فصارت كأنها مترددة، فأسعفها النبي (ﷺ) بهذه الجملة المؤكدة وهذه خصوصية بارزة في أسلوب النبي (ﷺ) خاصة عندما يتوجه للأمة بالتربية الراشدة والآداب النافعة، والمعارف التي لم تكن معروفة لهم.

---

(١) صحيح مسلم ج٢ ص ٦٣١ رقم ٩٢٥، وسيأتى شرح لهذا الحديث فى هذا البحث.
(٢) شرح الطيبى على مشكاة المصابيح ج٤ ص ١٣٧٣.
(٣) ينظر: شرح الأبى ج٣ ص ٦٣ والكوكب الوهاج ج١١ ص ١٠٦.

فمن منهم كان سيعرف أن الروح عند الموت يتبعها البصر لولا إخبار الصادق المصدوق الذي لاينطق عن الهوى (ﷺ).

والروح أجسام لطيفة متخللة في البدن وتذهب الحياة من الجسد بذهابها، وليس عرضا كما قاله آخرون، ولا دما كما قاله آخرون وفيها كلام متشعب للمتكلمين(١) و"الروح" يذكر ويؤنث(٢).

وفي قوله (ﷺ): "إذا قبض تبعه البصر" أسلوب شرط أداته "إذا" وهى تأتى في الشرط المقطوع بوقوعه، ولاشك أن قبض الروح ممالا مراء فيه لأحد فهو متحقق الوقوع فلذلك كانت "إذا" واقعة موقعها.

والتعبير عن أخذ الروح بـ "القبض" فيه من البلاغة ما فيه، لأن أصل "القبض" التناول للشئ بيدك ملامسة، وقبض على الشئ وبه يقبض قبضا: انحنى عليه بجميع كفه(٣) فالتعبير بـ "قبض" يدل على القوة والسيطرة في معالجة النزع فهو لفظ فخم يكسو المعنى مهابة تناسب هذا الحدث الجلل، وتزكية لهذه المهابة جاء الفعل مبنيا لما لم يسم فاعله وفى ذلك إبراز لعنصر الخفاء والغموض، لأن هذه عوالم لا يطلع عليها أحد من البشر إلا من حضره الموت، كما أن فاعل القبض وهو ملك الموت الموكل بذلك معلوم ومعروف فلم ينص عليه للعلم به ولينصب الاهتمام على مشهد القبض الذي يلفه الغموض والمهابة.

واختلف أهل العلم في دلالة جواب الشرط "تبعه البصر".

---

(١) ينظر: شرح النووي ج٥ ص ٢٢٢، والفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص ١٠٣.

(٢) لسان العرب: "روح".

(٣) السابق: "قبض".

فيذكر الإمام النووي أن المعنى أن الروح إذا خرج من الجسد تبعه البصر ناظرا أين يذهب، ويؤيد السيوطي ذلك ويوضحه فيقول: "وفى فهم هذا دقة فإنه قد يقال: إن البصر يبصر مادامت الروح في البدن فإذا فارقه تعطل الإبصار كما يتعطل الإحساس والذي ظهر لي بعد النظر ثلاثين سنة أن يجاب بأحد **أمرين:**

أحدهما: أن ذلك بعد خروج الروح من أكثر البدن وهى بعد باقية في الرأس والعينين فإذا خرج من الفم أكثرها ولم ينته كلها نظر البصر إلى القدر الذى خرج فيكون قوله:" قبض "معناه: إذا شرع في قبضه ولم ينته قبضه.

والثاني: أن يحمل على ما ذكره كثير من أن الروح لها اتصال بالبدن وإن كانت خارجة فيرى ويسمع ويعلم ويرد السلام(١).

وقد تورك ابن علان على السيوطي – وهو محق – فذكر أن في كلا الجوابين بعد وارتضى ما ذكره ابن حجر في التحفة حيث ذكر أن المراد من قوله "تبعه البصر" أن القوة الباصرة تذهب عقب خروج الروح فحينئذ تجمد العين ويقبح منظرها، ويحتمل أنه يبقى فيه عقب خروجها شئ من حارها الغريزي فيشخص به ناظرا أين يذهب بها ولا بعد في هذا؛ لأن حركته حينئذ قريبة من حركة المذبوح ويحكم على الإنسان مع وجودها بسائر أحكام الموتى(٢) وأحسن تأويل ما ذكره الطيبي حيث قال: "إن المحتضر يتمثل له الملك المتوفى لروحه فينظر إليه شزرا ولا يرتد طرفه حتى يفارقه وتضمحل بقايا قوى البصر ويبقى البصر على تلك الهيئة ويعضده ما رواه أبو هريرة عنه

---

(١) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج السيوطي ج٣ ص ١٠.

(٢) ينظر: الفتوحات الربانية. ابن علان ج٤ ص ١١٥ وما بعدها، وتحفة المحتاج بشرح المنهاج. ابن حجر الهيثمى ج٣ ص ٩٥.

أنه قال: قال رسول الله (ﷺ): "ألم ترو الإنسان إذا مات شخص بصره؟ قالوا: بلى قال: "فذلك حين يتبع بصره نفسه"وغير مستنكر من قدرة الله (ﷻ) أن يكشف عنه الغطاء ساعتئذ حين يبصر ما لم يكن يبصر"(١).

وخالف الدكتور لاشين هذا الفهم، لأنه مبني على أن الروح يرى وذكر أن ذلك بعيد والأولى أن يكون المعنى: إن الروح إذا قبض تبعه قبض البصر، وامتناع الرؤية فتتوقف العين عن الإبصار(٢).

وعلى ذلك الرأي ففي الكلام حذف، وأن التقدير: "إن الروح إذا قبض تبعه قبض البصر" وأرى أن في هذا الكلام نظرا؛ إذ ما الفائدة من أسلوب الشرط لأنه بهذا الفهم لم يضف جديدا لأن الروح إذا قبضت يقبض البصر وغيره.

إننا يجب أن نفهم المعنى في ضوء العلة التي كان من أجلها هذا الكلام، إن بصر الميت قد شق فأغمضه النبي (ﷺ) ثم ذكر: "إن الروح إذا قبض تبعه البصر" فكيف نفسر "تبعه البصر" بالقبض، وكلام أستاذنا الدكتور لاشين بأن الروح لا ترى فيه نظر، لأن المحتضر قد يكشف له من الحجب مالا علم لأحد به إلا الله تعالى فيرى الروح وغيرها.

والتعبير بلفظ "تبع" يدل على دقة المتابعة وملاحقة وملازمة المتبوع ملازمة تامة، والتعبير عن العين بـ "البصر" من قبيل المجاز المرسل وعلاقته المسببية حيث عبر بالمسبب "البصر" وأراد السبب والتقدير "تبعته العين" إذ هي التابعة والبصر هو الأثر الناتج عنها، وحاسية الرؤية(٣).

---

(١) شرح الطيبى على مشكاة المصابيح ج٤ ص ١٣٧٣.

(٢) فتح المنعم ج٤ ص ١٨٣.

(٣) لسان العرب "بصر".

ولما فعل النبي (ﷺ) ما فعل بأبي سلمة (رضي الله عنه) وقال ما قال أدرك أهله أن الرجل قد مات فصاحوا ورفعوا أصواتهم بالبكاء فقال لهم النبي (ﷺ): "لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ماتقولون".

فقد كانوا في الجاهلية إذا حصل مثل هذا يدعون على أنفسهم بالويل والثبور، يقول: يا ويلاه، يا ثبوراه وما أشبه ذلك(١)، فنهاهم النبي (ﷺ) عن ذلك بقوله: "**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير**" فقد قصر دعاءهم على أنفسهم على الخير "قصرا إضافيا لأنه بالنسبة لمعين وهو قصر قلب يقلب عليهم عملهم الفاسد ودعاءهم الذي ينقلب عليهم، فأسلوب القصر هنا يربى نفوسهم على الأدب العالي، والسلوك الأمثل، والعبارات اللائقة التي تناسب حضرة الميت فيوجههم إلى الدعاء بالخير ويعلمهم كيف يكون الدعاء، "فمن الدعاء بالخير نحو: "اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيرا منها واغفر لنا ورضنا بقضائك وقدرك"(٢)، وتأكيدا على اجتثاث بذور العادات السيئة وزرع بذور الخير وآداب الإسلام النضرة يعلل لهم (ﷺ) هذا التوجيه فيقول: "**فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**".

فالملائكة تؤمن على دعائهم خيرا كان أو شرا، و"في هذه الحال ينبغي للإنسان أن يدعو لنفسه بالخير"(٣).

وقد جاء هذا التعليل في قالب مؤكد أتم التأكيد فـ "الفاء" إذا سبقت "إن" فإن الدلالة على التعليل تكون أقوى وآكد وذلك لالتقاء رافدين من روافد العلية

---

(١) شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين ج١ ص ١٠٤٣.

(٢) ينظر: المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود. الشيخ محمود خطاب السبكي ج٩ ص ٢٥٥.

(٣) شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين ج١ ص ١٠٤٣.

"الفاء" و"إن" وكل منهما يمنح التعليل من دلالته الوضعية عنصرا دلاليا آخر غير الذي يعطيه الآخر له، "فالفاء" تشرب التعليل معنى التعقيب مثلما تشرب "إن" التعليل معنى التوكيد فيجمع التعليل المنبعث من "فإن" معنين: التعقيب والتأكيد"(١).

ومجئ الفعل "يؤمنون" مضارعا فيه استحضار لصورة الملائكة وقد أخذوا يقولون: آمين، وفى ذلك تخويف وزجر لهم من الدعاء على عاداتهم الجاهلية، وترغيب في الالتزام بآداب الدعاء التي علمهم الرسول (ﷺ) إياها.

و "ما" اسم موصول بمعنى الذي يدل على استقصاء كل ما يصدر منهم، وجاء حذف عائد الصلة والتقدير: "على ما تقولونه" والغرض من الحذف قصد التعميم والشمول.

ثم أخذ النبي (ﷺ) يوجههم إلى ما فيه الصلاح والخير للميت، وهو الدعاء له، كما أن قيام النبي (ﷺ) بهذا الدعاء لهذا الصحابي الجليل يدخل الأنس والسكينة والطمأنينة على قلوب أهله فهو أحسن تعزية لهم؛ لأنه (ﷺ) مستجاب الدعوة، وقد عطف الراوي دعاء النبي (ﷺ) بـ "ثم" يقول الراوي: "ثم قال: اللهم اغفر لأبى سلمة...."، و"ثم" وهي هنا للتراخي الرتبي لأن ما بعد "ثم" مناجاة ودعاء وابتهال لله (ﷻ) فنبه هذا التراخي الرتبي على ما في ذلك من الفضل والتعظيم .

وقد بدأ النبي (ﷺ) دعاءه بقوله: "**اللهم اغفر لأبى سلمة**".

---

(١) ينظر: سبل الاستنباط من الكتاب والسنة د/ محمود توفيق سعد ص ٨٧.

واستغراقا من رسول الله (ﷺ) في مناجاته لربه – سبحانه – وحرصا منه على التضرع التام جاء النداء بـ "اللهم" والمعنى "يا الله" والجمهور على أن الميم المشددة عوض عن" يا " ومن ثم لا يجمع بينهما إلا في الضرورة"(١).

ولا بن القيم (رحمه الله) كلام بديع بين من خلاله سبب إيثار الميم المشددة دون غيرها لتكون عوضا عن "يا" النداء وخلاصته أن "الميم" تدل على الجمع وتقتضيه وهذا مطرد على أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى، فالناطق به يضم شفتيه، وقد وضعته العرب حيث أرادت الجمع، ويسرد ابن القيم حزمة من الألفاظ المنتهية بحرف "الميم" قال عنها: "وتأمل الألفاظ التى فيها الميم كيف نجد الجمع معقودا بها مثل: "لم الشئ يلمه" إذا جمعه، ومنه: "لم الله شعثه" أي ما تفرق من أموره، ومنه "تم الشيء" وما تصرف منها مثل: "بدر التم" إذا كمل واجتمع نوره، ومنه "الأم" وأم الشئ أصله، وأكثر ابن القيم من هذه الأمثلة وانتهى إلى قوله: وإذا علم هذا من شأن الميم فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يسأل الله –سبحانه– به في كل حاجة وكل حال إيذانا بجميع أسمائه وصفاته، فالسائل إذا قال:" اللهم إني أسألك "كأنه قال: "أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها"(٢) وكأن العرب في تعويضهم عن "يا" النداء" اختاروا حرفا يؤدى مهمة التعويض، ومهمة الدلالة على الجمع والتعظيم لتتكاثر عطاءات الصيغة"(٣).

---

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ج٤ ص ٣١.

(٢) ينظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام. ابن القيم ص ٧٣ وما بعدها.

(٣) من ميراث النبوة. د/ إبراهيم داود ود/محمود توفيق سعد ص٩١.

ويقوى هذا المعنى ماروي عن النضر بن شميل أنه قال: "من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها"، وقول الحسن البصري "اللهم تجمع الدعاء"(١).

وفعل الأمر (اغفر) ليس على حقيقته وإنما خرج لغرض بلاغي هو الدعاء، حيث اتجه الآمر رسول الله (ﷺ) بكلامه إلى من هو أعلى منه – وهو الله (ﷻ) على صفة التضرع والضعف والابتهال، والرجاء.

والتعبير عن مغفرة الله للذنوب بلفظ "غفر" وما يشتق "منها كغافر وغفور أنسب من غيرها مثل: "محى" وما يشتق منه مثلا، لأن أصل "غفر" ستر، وكل شئ سترته فقد غفرته، ومنه قيل للذي يكون تحت بيضة الحديد على الرأس: مغفر وتقول العرب: اصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه أي أحمل له وأغطى له، وغفرت المتاع: جعلته في الوعاء"(٢).

فمعنى "غفر الله الذنوب" أي سترها، وقد يقول قائل: إن محو الذنوب ضياع لها بالكلية، وهى لذلك أوقع من "غفر" التي هي مجرد الستر، ولكن عند التدقيق نجد أن استخدام مادة "غفر" راجع إلى سعة رحمة الله تعالى؛ لأن الله يستر على عبده ذنوبه حتى إذا تاب وحسنت توبته بدل الله سيئاته حسنات، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الفرقان: ٧٠)، وإيقاع المغفرة على صريح اسم أبى سلمة دون "اغفر له" أو "لميتنا" ونحوه تذكير بحاله ومكانته،

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن. القرطبى ج٢ ص ١٢٩٦.

(٢) لسان العرب "غفر".

فأبو سلمة أول من هاجر إلى الحبشة، وأول من هاجر إلى المدينة، وكان بدريا، وروى عن ابن عباس أنه أول من يأخذ كتابه بيمينه(١).

ومع كل هذا العمل يدعو له النبي (ﷺ) بالمغفرة ولم لا ورسول الله (ﷺ) كان أكثر الناس استغفارا لربه (ﷻ)؟!.

وهذا يدل على أن "أقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به، ولا وسيلة منه يمن بها بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته وشهد ضرورته إلى ربه (ﷻ) وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته"(٢).

ومفعول الفعل "اغفر" محذوف والتقدير: ذنوبه أو خطاياه أو تقصيره، فالحذف هنا قصدا للتعميم، وقد يفيد نكتة أخرى هى كراهة ذكر الذنوب صراحة وكأن النبي (ﷺ) سترها لفظا ليسترها ربه – سبحانه – حقيقة ومعنى.

وإذا غفر الله ذنوب عبده كان أهلا لقوله (ﷺ): "وارفع درجته في المهديين "فهذا من باب الترقي في الدعاء ومعنى "ارفع درجته في المهديين" أي ارفع رتبته في الجنة لأن أصحاب الجنة؛ مهديون كلهم(٣).

---

(١) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر ج٣ ص ٥٨٦، والطبقات الكبرى ابن سعد الزهري ج١ ص ٢٠٤.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب. ابن القيم ج ١١.

(٣) ينظر: شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين ج١ ص ١٠٤٣.

و"المهديين" الذين هداهم الله وأنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين(١)، ولذلك ففي قوله "المهديين" مجاز مرسل حيث ذكر من يحل في المكان وأراد المحل "الجنة" والمجاز الذي يذكر فيه الحال ليدل على المحل هو مجاز مرسل علاقته الحالية.

ولأن دعاء النبي (ﷺ) جامع مانع لم ينس الدعاء بما يصلح ذريته في دنياه حتى لا يحزن العبد المسلم على ضياع أولاده من بعده فكان قوله (ﷺ): "واخلفه في عقبه في الغابرين" وأفضل ما يكون وما يرجوه الإنسان من ربه أن يطمئن على آخرته أولا، وألا يخاف على أولاده من بعده ثانيا، ومعنى "اخلفه في عقبه..." أي كن له خليفة في إصلاح أحوال من يعقبه ويتأخر عنه من ذرية حال كونهم من جملة الباقين في الناس فالغابر الباقي(٢).

و"العقب" في الأصل مؤخر الرجل واستعير للولد وولد الولد(٣) فالتعبير من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية "ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيه فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة"(٤).

وليس أبو سلمة وحده الذي يحتاج إلى الدعاء بل نحن أيضا نحتاج إلى المغفرة والرحمة، فكان قوله (ﷺ):" واغفر لنا وله يارب العالمين "ولأن الميت

---

(١) ينظر: المنهل العذب المورود ج٨ ص ٢٥٥، والكوكب الوهاج ج١١ ص ١٠٦.
(٢) ينظر: المنهل العذب المورود ج٨ ص ٢٥٥.
(٣) الكوكب الوهاج ج١١ ص ١٠٦.
(٤) أسرار البلاغة ص ٣٣ وما بعدها.

أحوج إلى الدعاء بالمغفرة من الحي أعاد النبي (ﷺ) الدعاء لأبى سلمة مرة أخرى مناديا ربه بقوله "**رب العالمين**"

ومعنى "الرب"، السيد المالك المتصرف في مخلوقاته بإرادته(١)، وإضافة "رب" إلى العالمين أفاد عموم ربوبيته للعالمين بما في معنى الربوبية من العطاء والعون والمدد لكل مخلوقاته (ﷻ) وفى ذلك استعطاف وانكسار لله (ﷻ) فأنت ربنا الذي خلقت وأعطيت، ونعمك لا تحصى ولا تعد فأتمم علينا فضلك، وأسبغ علينا نعمك فاغفر لنا الذنوب، كل هذه المعاني وغيرها كثير يشع من قوله (ﷺ): "يارب العالمين".

ثم ختم النبي (ﷺ) دعاءه لأبى سلمة بما ينفعه في حياة البرزخ فقال (ﷺ): "وأفسح له في قبره، ونور له فيه".

فجمع بهذا الدعاء لقبره أمرين: السعة والنور، فقوله: "افسح له في قبره" أي: وسع له فيه فإن القبر بالنسبة لمنازل الدنيا ضيق بحسب الحس لكنه يفسح للمؤمن حتى يكون كمد البصر، ويكون روضة من رياض الجنة"(٢).

وقوله: "ونور له فيه" أي اجعل فيه نورا؛ لأن القبر مظلم بحسب الحس لا فيه نور النهار ولا نور السراج وغيره(٣).

وقد بنيت الجملة على دقة متناهية، وكان من الممكن أن يقال: "ونوره" إلا أن النبي (ﷺ) أعاد ذكر الجار والمجرور "له" تأكيدا على أن هذا النور له، يكتنف قبره هو، فقد أحال النبي (ﷺ) هذا الظرف المكاني الموحش (القبر) إلى فسحة واسعة قد نورها الله فصارت روضة من رياض الجنة.

---

(١) كتاب الأسماء والصفات. البيهقي. ص ٩٤.

(٢) شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين ج١ ص ١٠٤٣.

(٣) شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين ج١ ص ١٠٤٣.

"فهذه الدعوات الخمس منها شئ علمناه، ومنها شئ رجوناه الذي علمناه أن الله (ﷻ) خلفه في عقبه لأن زوجته تزوجها النبي (ﷺ) وأولاده صاروا ربائب للنبي (ﷺ) وتربوا في بيته، وأما الأربعة الباقية فإننا نرجو الله أن يكون قد قبل دعوة نبيه في هذا الرجل الصالح"(١).

وقد أفرغت هذه الجمل الدعائية إفراغا واحدا وبنيت على نمط متحد في طريقة التكوين والبناء فكل جملة بدئت بفعل أمر غرضه الدعاء والمسند إليه في كل هذه الجمل واحد وهو الله (ﷻ) ولم تخل جملة من متعلق جار ومجرور، فكل الجمل حذت حذوا وبنيت على منوال واحد، وذلك يجعل حفظها ميسورا جدا ويثبت معانيها في نفوس المكلفين بها، لأن الموت حدث يدور مع كل إنسان، ومن الأمور التي تسن عند هذه الحادثة الدعاء للميت وأفضل الدعاء ماورد عن النبي (ﷺ).

وبناء الجمل على هذا النسق المتكامل مما يسهل ذكره وحفظه واستحضاره عند هذا الحدث، خاصة أن الواو عطفت بين هذه الجمل فصارت كأنها جملة واحدة يربطها رباط وثيق، والوصل هنا للتوسط بين الكمالين مع عدم إيهام خلاف المقصود، فهي جمل اتفقت فى الإنشائية لفظا ومعنى، والغرض فيها واحد هو الدعاء للصحابى الجليل أبى سلمة.

ومما هو داخل في جمال التناسق والتكامل بين هذه الجمل وقوع السجع بين فقراتها في قوله:

"**وارفع درجته في المهديين**"

"**واخلفه في عقبه في الغابرين**"

---

(١) كتاب الأسماء والصفات. البيهقي. ص ٩٤.

"واغفر لنا وله يارب العالمين"

فالجمل تكاد تكون متحدة في طريقة التكوين والصياغة، وكلها مختومة بحرف الغنة والترنم المسبوق بياء المد، مما جعل لوقعها موسيقى عذبة لا تخطئها الأذن الواعية، ومعلوم أن موسيقى النفس تتوقف على موسيقى اللفظ، فكلما تآلفت الكلمات وتناسقت الأصوات اشتد تأثيرها في العقل، وحسن وقعها فى النفس؛ لأن الصلة وثيقة بين الأصوات والجهاز العصبي، حيث يتحول ما ينبعث من نغم ورنات إلى مؤثرات في الأوتار العصبية للإنسان فتوقظ العواطف وتثير كامن الانفعال، وتبعث ألوانا من الذكريات وأفنانا من الأحاسيس والتموجات، وليس كالسجع مؤثر فإن توالى المقاطع، وتناسب الفقر، وحسن الإيقاع، وتتابع الأصوات بنظام واتساق النظم، وتوارد الفواصل على حرف واحد مع الاعتدال فى مقاطع الكلام كل ذلك يجعل الكلام خفيفا على اللسان مقبولا في الأذن، موافقا لحركات النفس، مطابقا لطبيعة الفكرة أو الصورة أو العاطفة التي يعبر عنها الأديب، وهذا ما يعبر عنه بالسلاسة والعذوبة والطلاوة(١).

وقد جاء السجع في هذه الجمل عفو الخاطر ووحي البديهة، "وأكثر ماجاء في البيان النبوي مسجوعا الابتهالات والدعوات والتضرعات والاستعاذات، وهذا ما جعلني أفكر أن البيان النبوي يرسم للإنسان طريقه في الحياة وإلى الله هاديا ومرشدا، هكذا كان النبي الكريم يخاطب الناس ويعلمهم، لكن هناك لحظات كان يناجى ربه وحده ضارعا ذائبا ينسى هذا الكون وما فيه،

(١) ينظر: السمات البلاغية في بيان النبوة د/صباح دراز ص ٤٢٣، ودفاع عن البلاغة أ/ أحمد حسن الزيات ص ١٢. ومابعدها، والأسلوب د/ أحمد الشايب ص ٦٨، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعي ص ٢٤٤.

فكان هنا حالة استغراق إنسانية خاصة فيها فوران عاطفي، واهتزاز وجداني لا جرم أن الألفاظ تتبع وفيها هذا الإشعاع الروحي منغومة مسجوعة صافية فيها إيقاع خاص"([1]).

وهذا التحليل الماتع لورود السجع في كلام النبي (ﷺ) يتفق مع ما قرره جمهرة البلاغيين الذين أقروا السجع نمطا في الكلام، واشترطوا لقبوله عدم تكلفه، واقتضاء المقام له([2])، وخالفهم في ذلك بعض أهل العلم ك الباقلاني والرماني حيث عابا السجع وأولا ما جاء في القرآن والسنة وآثار العرب بأسماء غير السجع([3]) وارتضى الدكتور شوقي ضيف ذلك حيث قال: "ومن المؤكد أنه (عليه السلام) لم يستخدم السجع في خطاباته، بل كان ينفر بسبب استخدام الكهان له في الجاهلية... ولذلك صد عنه كما صد عنه خلفاءوه"([4]).

ويرد ذلك ما ورد من أحاديث مسجوعة والقول الراجح هو ورود السجع في كلام النبي (ﷺ) وأنه ليس مذموما على إطلاقه بل منه محمود كما وقع في كلام النبي (ﷺ) ومنه مذموم كما جاء في سجع الكهان، يقول النووي في شرحه لقوله (ﷺ): "اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من ذكاها أنت وليها ومولاها..."

---

(١) ينظر: السمات البلاغية فى بيان النبوة د/ دراز ص ٤٢٨.

(٢) ينظر: الصناعتين ص ٢٥١، وأسرار البلاغة ص ١١ وسر الفصاحة ص ١٦٤، والمثل السائر ج١ ص ٢٧٥، وتحرير التحبير لابن أبى الإصبع ج٣ ص ٣٦٥، والطراز، العلوي ج٣ ص ٢. والبرهان للزركشي ج١ ص ٩٥ / ٦٠.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن. الباقلاني ص٦، والنكت في إعجاز القرآن.الرماني. ص ٧٥ وضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

(٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي د/ شوقي ضيف ص ٥٧.

يقول: "هذا الحديث وغيره من الأدعية المسجوعة دليل لما قاله العلماء أن السجع المذموم في الدعاء هو المتكلف فإنه يذهب الخشوع والخضوع والإخلاص ويلهى عن الضراعة والافتقار وفراغ القلب، فأما ما حصل بلا تكلف ولا إعمال فكر لكمال الفصاحة ونحو ذلك أو كان محفوظا فلا بأس به بل هو حسن"([1]).

وكذلك رأى ابن حجر عند شرحه لقوله (ﷺ) "...وغلب الأحزاب وحده فلا شئ بعده" قال: "هو من السجع المحمود والفرق بينه وبين المذموم أن المذموم ما يأتي بتكلف واستكراه، والمحمود ما جاء بانسجام وإتقان ولهذا قال في مثل الأول: أسجعا مثل سجع الكهان؟! وكذا قال: كان يكره السجع في الدعاء ووقع في كثير من الأدعية والمخاطبات ما وقع مسجوعا لكنه في غاية الانسجام المشعر بأنه وقع بغير قصد"([2]).

وذكر ابن دقيق العيد في شرح العمدة: أن ما ورد من ذم السجع محمول على السجع المتكلف لإبطال حق وتحقيق باطل أو لمجرد التكلف بدليل أنه قد ورد السجع في كلام النبي (ﷺ) وفى كلام غيره من السلف([3]).

وتبعهم ابن القيم في ذلك حيث قال: "فقد اختلف أرباب علم البيان فيه – أي السجع – فمنهم من قال باستحسان السجع وفضله على الاسترسال في الكلام ورجحه، ومنهم من كره السجع وأقبحه واحتج على ذلك بأمرين: أحدهما اشتماله على الكلفة، والثاني قوله (ﷺ) أسجعا كسجع الكهان؟ وكلا الحجتين فاسد.. أما الأولى: فلأنه لم يخل شئ من الكلام من تكلف ما.. وأما الثانية:

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج٩ ص٤٠.

(٢) فتح الباري لابن حجر ج٧ ص ٤٠٧.

(٣) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. تقي الدين ابن دقيق العبد ص ٦١٤.

فلأن الإنكار إنما كان لسجع مخصوص وهو ما قصد به إبطال حق أو تحقيق باطل، ولو كان السجع قبيحا لاستحال وروده في القرآن، والتسجيع وعدمه أسلوبان جرت عليهما ألسنة فصحاء العرب وخطبائهم يأتون بذلك بغير تكلف ولا تعسف"(١).

بل إن السجع المطبوع مظهر من مظاهر الإبداع كما رأينا في الحديث الذي معنا حيث زاد من عذوبة الألفاظ وتناسق الجمل وسلاستها، لأنه جاء عفوا غير متكلف يتطلبه المعنى ويسوق إليه ولم تجد "لفظا اجتلب من أجل السجع، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه، وأبر به، وأهدى إلى مذهبه"(٢).

"فالكلام الموسيقى المتوازن –على اختلاف ألوانه – هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم والسرور والحزن، والرضا والغضب والبسط والقبض تبعثه في يسر من أعماقها سيالا متداركا، كأنما تجد في تناغم ألفاظه ورنين أجراسه وتعاطف حروفه متنفسا لهذا الجيشان العنيف وتلطيفا لهذه الثورة الصاخبة"(٣).

فالأمر في السجع كما قال الإمام الغزالي في آداب الدعاء: "ألا يتكلف السجع في الدعاء، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه"(٤).

والله أعلم

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. ابن القيم ص ٢٢٨.
(٢) أسرار البلاغة ص ١٣.
(٣) صور من البديع (فن الأسجاع) د/ على الجندي ج١. ط٩. دار الفكر العربي.
(٤) إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. ج١ ص ٣٠٧ وما بعدها.

الحديث الرابع
التعزيــة بالحث على الصبر

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال:" مر النبي (ﷺ) بامرأة تبكى عند قبر، فقال: اتقى الله واصبري قالت: إليك عنى، فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقيــل لها: إنه النبي (ﷺ)، فأتت باب النبي (ﷺ)، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لــم أعرفك، فقال: " إنما الصبر عند الصدمة الأولى"(١). صدق رسول الله (ﷺ).

كتب الله (ﷻ) على عباده البلاء والصبر في أنفسهم وأمــوالهم وأولادهــم، ووعد الصابرين على هذا البلاء الأجر العظــيم، فقــال تعــالى: ﴿...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾(الزمر: ١٠)، وفى هذا الحديث لما مــر النبــي (ﷺ) على المرأة التي وجدها تبكى على القبر لفقد أحد أحبابها، أمرها بتقوى الله (ﷻ) والصبر على مصيبتها، وهذا من تعزيته لها (ﷺ)، فجزعها وندبها علــى من فقدت استلزم أن تأخذ التعزية صورة الأمر بالتقوى والصبر.

ولما لم تعرفه المرأة أمرته بالابتعاد عنها، فانصرف عنها النبــي (ﷺ) ثــم لما أخبرت أن من مر بها هو النبي (ﷺ) جاءته معتذرة فأخبرها النبــي (ﷺ) أن الصبر المحمود هو عند بداية المصيبة.

وهــذا النص النبوي يدل على عظم رحمة النبــي (ﷺ) بأمتــه وحرصــه الشديد على ما يصلح أحوالهم، فها هو رسول الله (ﷺ) مع كثرة أعبائه، وعظــم

---

(١) صحيح البخاري. كتاب الجنائز. باب زيارة القبور ج٢ ص ٧٩. رقم ١٢٨٣، صــحيح مسلم. كتاب الجنائز، باب الصبر على المــصيبة ج٢ ص ٦٣٧ رقــم ٩٢٦. واللفــظ للبخاري.

مسؤولياته يهتم لأمر هذه المرأة الثكلى فيعظها ويأخذ على يديها، لأنه (ﷺ) بالمؤمنين رؤوف رحيم، وجماع أمور الإسلام يدور حول هذين الأمرين: التقوى والصبر؛ ولذلك لم يجد النبي (ﷺ) أمام بكاء هذه المرأة وندبها إلا أن يأمرها بقوله (ﷺ): "**اتقى الله واصبري**"

فمن المؤكد أن هذه المرأة قد صدر منها ما يكره من ندب وعويل لفقد صبيها، ومعلوم منزلة الولد من أمه، وقد وضحت رواية مسلم أنها كانت تبكى على ولدها؛ حيث ورد فيها: "مر النبي (ﷺ) بامرأة تبكى على صبى لها"(١).

ولذلك لم يخاطبها النبي (ﷺ) بما يرغبها في الأجر إذا هي احتسبت وصبرت، وإنما خاطبها بما يرهبها من الإثم؛ لأن بكاء المرأة كما يذكر القرطبي كان معه ما ينكر من رفع صوت أو غيره كالجزع"(٢) ، ويؤيده رواية الطبراني "فمر بامرأة عند قبر ميت لها وهى تُعدد وتُعول"(٣) ، فهذا يدل على أن المرأة تجاوزت حد البكاء إلى النواح والعويل، وهو مظهر من مظاهر الجزع وعدم الرضا بالقضاء، فكان من المناسب أن تأخذ التعزية صورة الأمر بالتقوى والصبر.

وقول النبي (ﷺ): "اتقى الله" أمر لها بالتقوى وهى العمل بما أنزل الله باتباع واجباته والعمل بفرائضه، جاء في الرسالة التبوكية لابن القيم: "وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمرا ونهيا، فيفعل ما أمر الله به إيمانا بالأمر وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانا بالنهى وخوفا من وعيده كما قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فاطفئوها بالتقوى قالوا: وما

---

(١) صحيح مسلم ج٢ ص ٦٣٧ رقم ٩٢٦.
(٢) المفهم. القرطبي ج٢ ص ٥٧٩.
(٣) المعجم الأوسط. الطبرانى ج٦ ص ٢٢٢.

التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله، وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى"([1]).

ومناط الفائدة هنا في الأمر بالتقوى الالتزام بأخلاق الإسلام وآدابه والرضا بقضاء الله وقدره وكل ذلك مسبب عن التقوى ولأن التقوى صفة جامعة لكل خصال الخير، فعطف الأمر بالصبر عليها في قوله (ﷺ): "واصبرى" من باب عطف الخاص على العام وهو لون من ألوان الإطناب يؤتى به: "للتنبيه على فضله، حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات"([2]) وفى هذه الصورة تأكيد للخاص عن طريق تكراره، لأنه "يذكر مرتين، الأولى: بدخوله في حكم العام، والثانية بتخصيصه بالذكر([3]).

وإنما ذكر الأمر بالصبر بعد دخوله ضمنا في الأمر بالتقوى لمزيد الاهتمام به، وتأكيد العناية به، لشدة علوق الموقف به وارتباطه المباشر بالحدث، والصبر هو نقيض الجزع وهو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره"([4]) فكأن النبي (ﷺ) قال لها: "لا تجزعي وخافي غضب الله واصبري حتى تثابي"([5]) وكان جواب المرأة على رسول الله (ﷺ) بقولها" إليك عنى" أي تنح عنى وباعدني([6])، وهذه الإجابة

---

(١) الرسالة التبوكية. ابن القيم ج١ ص ١٤.
(٢) البرهان. الزركشى ج٢ ص ٤٦٤.
(٣) الواو ومواقع في النظم القرآني ص ٣٩٢.
(٤) رسالة ابن القيم إلى أحد أخوانه ص١٩.
(٥) شرح المشكاة للطيبي ج٢ ص ٤١٣.
(٦) مرقاة المفاتيح ج٣ ص ١-.

المقتضبة تظهر نفسا يائسة بائسة استسلمت لغضبها وانقادت لأهوائها، واستعظمت مصيبتها؛ لذلك عللت موقفها هذا بقوله: "فإنك لم تصب بمصيبتي".

والفاء تعليلية للمفهوم من كلامها أي: تقول لا تعذر لأنك لم تصب بمثل مصيبتي، وهذه المماثلة ملاحظة؛ لأن الإنسان لا يصاب بمصيبة غيره نفسها إلا إذا كان شريكا له فيها، وهذه الجملة خطأ من المرأة؛ لأن رسول الله (ﷺ) كان قد مات له ولدان قبل ذلك([1]).

وقد قالت ذلك الكلام جاهلة بشخصه (ﷺ) غير عارفة له، "وهذا من المرأة سوء أدب تأذى به النبي (ﷺ) إلا أنه قابل ذلك بالصبر وحلم عنها ولم يؤاخذها به مع تمكنه من ذلك (ﷺ)([2]).

فلما علمت أنه (ﷺ) أتت إلى النبي (ﷺ) معتذرة له يقول الراوي:" فأتت باب النبى (ﷺ) فلم تجد عنده بوابين" والضمير فى " عنده " للنبي (ﷺ) وفائدة هذه الجملة أنه لما قيل لها إنه النبي (ﷺ) استشعرت خوفا وهيبة فى نفسها، فتصورت أنه مثل الملوك له حاجب وبواب يمنع الناس من الوصول إليه فوجدت الأمر على خلاف ماتصورته([3])، فالتعبير هنا كناية عن تواضعه (ﷺ) وزهادته فى الدنيا.

فقالت للنبي (ﷺ) "لم أعرفك" والجملة معطوفة على محذوف تقديره:" فاستأذنت فدخلت عليه فقالت....." وسر بلاغة الحذف الإيجاز وتصفية العبارة وترويقها، وبعث الفكر والخيال للاستدلال على المحذوف، كما أن الراوي يريد أن يختصر الكلام اختصارا بحذف ما هو مدلول عليه وصولا إلى

---

(١) المنهل الحديث في شرح الحديث د/موسى شاهين لاشين ج٢ ص ٦٦.

(٢) المفهم. القرطبي ج٢ ص ٥٧٩ (بتصرف).

(٣) المفهم. القرطبي ج٢ ص ٥٧٩.

الأحداث الأساسية في النص التي لامناص من ذكرها وقولها:" لم أعرفك "من باب المجاز المرسل لعلاقة السببية حيث عبرت بالسبب وأرادت المسبب وهو عدم المؤاخذة بما فعلت، فقال لها النبي (ﷺ): "إنما الصبر عن الصدمة الأولى".

أي الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر الجزيل ما كان عند مفاجأة المصيبة لكثرة المشقة فيه(١)، لأن "مفاجئة المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها فإن صبر للصدمة الأولى انكسرت حدتها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر"(٢).

وقد جاء هذا المعنى في أسلوب قصر طريقه "إنما" وهو قصر موصوف على صفة، أي ما الصبر إلا الكائن عند هذه الصدمة، وهو قصر إضافي إذ بدت المرأة وكأنها تعتقد أن ما تفعله غير مناف للصبر فجاء التعبير وقلب عليها هذا الاعتقاد الخاطئ بدليل ماروي أنها قالت للنبي (ﷺ): "أنا أصبر أنا أصبر"(٣) فأجابها النبي (ﷺ) بأن الصبر الكامل المطلوب ليس مايقع بعد الموت بزمن إنما ما يقع عند ابتداء المصيبة وابتداء الصدمة.

ومما يؤكد هذه الدلالة أن الإمام عبد القاهر ذهب إلى أن "إنما" يؤتى بها للرد على من يعتقد نفى ما أثبته بها قال عبد القاهر: "إذا قلت: إنما جاءني زيد لم يكن غرضك أن تنفى أن يكون قد جاء مع زيد غيره، ولكن أن تنفى أن يكون المجئ الذي قلت إنه منه كان من عمرو، وكذلك تكون الشبهة مرتفعة في أن ليس ههنا جائيان وأن ليس إلا جاء واحد، وإنما تكون الشبهة في أن ذلك الجائي زيد أم عمرو، فإذا قلت: إنما جاءني زيد حققت الأمر في أنه زيد،

---

(١) شرح النووي ج٦ ص ٢٧٧ عمدة القاري ج٨ ص ٦٨.

(٢) تسلية أهل المصائب. محمد المنبجي ص ١١٩.

(٣) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ج١ ص ٣١٥.

وكذلك لا تقول إنما جاءني زيد حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءك، ولكنه ظن أنه عمرو مثلا فأعلمته أنه زيد"(١).

ومقتضى ذلك أن قول النبي (ﷺ): "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" فيه تحقيق لكون الصبر المثاب عليه هو ما كان عند ابتداء المصيبة وفيه أيضا تصحيح لمعتقد المرأة التي ظنت نقيض هذا المفهوم.

ويحتمل الإفراد في هذا الأسلوب أيضا، فما المانع أن تكون هذه الثكلى معتقدة حسن الصبر عند الصدمة الأولى وحسنه بعد ذلك، ولما لم تستطع الصبر عند الصدمة الأولى لشدة هول المصيبة رأت أن تصبر بعد ذلك، فقال النبي (ﷺ) مفردا لها المعنى: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى"، والمحقق عند البلاغيين أن "إنما" تأتى لكل صور القصر"(٢) والذي يحدد دلالتها حال المخاطب وفهمه واعتقاده.

والمعاني التي تدخل عليها "إنما" معان مأنوسة قريبة من النفوس فلا تدخل على الحقائق الغريبة، والأفكار البعيدة، ... وهذا بخلاف "ما" و "إلا" التي تسمع لها قعقعة وتجد لها حدة، ولذلك لا تصاغ بها إلا المعاني النافرة، والحقائق النادرة التي من شأن النفوس أن تنكرها وتقيم دونها الأسوار، ومن هنا رأيناها كأنها حراب يفتح بها المتكلم أبواب القلوب، أما "إنما" فهى كما قلنا أداة رقيقة هامسة لا تنزعج النفوس لما دخلت عليه، ولا ترفض ماجاء في وعائها"(٣).

ولعل ذلك هو سر العدول إلى هذا الطريق من طرق القصر خاصة أن السياق هنا سياق ملاطفة ومعاتبة، ولفت ذهن المرأة في وداعة ولطف إلى

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٣٥.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب ص ١٤١.

(٣) ينظر: السابق ص ١٤٨.

الصبر الكامل المثاب عليه، وكأن النبي (ﷺ) بهذه الكلمات يرتب على كتفيها في رفق ومودة، حتى يذهب بموجدة قلبها.

والأصل في "إنما" أنها تأتى لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة(١)، وكأنها لقوة دلالتها على أن ما تدخل عليه مأنوسا، ولتمكنها في هذه الدلالة ولوفرة هذا المعنى فيها، تفيض على الشئ الغريب غير المأنوس فتصيره أليفا مأنوسا، وحين ترد هذه الموارد، وتلقى هذه الظلال تجد لها مذاقا حسنا، وثراء في الدلالة، وتكثيفا في الإيحاء(٢).

فقول النبي (ﷺ): "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" ينبغي أن يكون من المسلمات التي لا مشاحة فيها؛ لأن ذلك حقيقة ظاهرة، وأمر جلي لا وجه لإنكاره، وهذا ضرب من تقرير المعاني يفوق كل صور التوكيد ويؤكد الإمام على هذه الدلالة المستوحاة من "إنما" فيقول: "ومما يجب أن تجعله على ذكر منك من معاني "إنما" ما عرفتك أولا من أنها قد تدخل في الشئ على أن يخيل فيه المتكلم أنه معلوم، ويدعى أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع"(٣).

وفى قوله: "الصدمة" استعارة تصريحية أصلية، لأن أصل "الصدم" ضرب الشئ الصلب بشئ مثله(٤).

فاستعير هذا المعنى لحلول المصيبة، بجامع شدة الإيذاء والمباغتة في كل، وقد أظهرت هذه الاستعارة شدة المصيبة وعظم فورتها، وأخرجت المعنى في صورة حسية تراها العين، فتتفاعل مع وقعها الشديد الذي يؤثر في النفس

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٣٠.
(٢) دلالات التراكيب ص ١٥٥.
(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٥٧.
(٤) لسان العرب "صدم".

والوجدان وغير خاف "أن المعاني إذا أديت في صورة تجريدية حقيقية ثبتت في الذهن والوعي مجردة من كل ظل جميل، فإذا ما نقلت في معرض الاستعارة والتصوير كان لها شأنها البعيد؛ لأنها تخاطب الحس والوجدان وتنفذ إلى النفس من منافذ شتى من الحواس بالتخييل والحس النفسي والوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ويكون الذهن واحدا من تلك المنافذ الشتى، مع الاتساع والتوكيد، وإذا كانت الاستعارة تقوم على التشبيه، وتشترك معه في إدراك ما بين الطرفين من شبه، فهي تفوقه تصويرا وتأكيدا وتنفرد عنه بعملية خيالية هي ادعاء الاتحاد بين الطرفين والاكتفاء بواحد، فكأن المجاز هنا تندمج فيه فكرتان تدل الكلمة عليها، بدلا من فكرة واحدة، فأساسه المعنى المزدوج؛ ولذا يسميه بعضهم "الشعور المزدوج" ومرجع هذا إلى المزج بين الخيال والوجدان، ثم إلى إبراز عملهما بصورة لغوية دلالة النبوغ، وعلامة العبقرية"(١).

لقد رسمت الاستعارة النبوية صورة حسية فأرتنا المصيبة تصيب الإنسان فتهتز أركانه من خلال صورة الجسم الصلب الذي يرتطم بمثله فإذا لم يكن قويا تفتت وتلاشى وكذلك حال المسلم مع المصيبة إذا لم يكن قويا بإيمانه ينهار أمام مصائب الدنيا، ووصف هذه "الصدمة" بـ "الأولى" كناية عن أول هجمة المصيبة، وإنما كان ثواب الصبر عند ابتداء المصيبة، لأن المصيبة في بدايتها تشق وتعظم، وتحتاج إلى مجاهدة النفس حتى لا تقع في المحظور من تسخط وجزع وشق ثياب ونحوه، وأثر المصيبة يخف يوما بعد يوم حتى تتلاشى(٢)، فالصبر المثاب عليه هو "خلق فاضل من أخلاق النفس يمنع به من

---

(١) السمات البلاغية في بيان النبوة د/ صباح دراز ص ٣١٧.

(٢) ينظر: شرح النوري ج٦ ص ٢٧٧، وشرح السنة. الإمام البغوي ج٥ ص ٤٤٨، وتحققه الأحوذي ج٤ ص ٦١ وما بعدها، وفتح المنعم ج٤ ص ١٨٨.

فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها"([1]) ، فالصبر عند الصدمة الأولي "يدل على قوة النفس وتثبتها وتمكنها فى مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك ولذلك قيل: يجب على العاقل أن يلتزم عند المصيبة مالا بد للأحمق منه بعد ثلاث"([2]).

ولذلك كان الصبر عند الصدمة الأولى أعلى مقامات الصبر، يقول ابن عباس (رضي الله عنهما): "الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه، صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة([3])، ويبين الإمام أبو حامد الغزالي سبب ذلك التفضيل فيقول:" وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض، لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس، ولذلك قال: (ﷺ):" أسألك من اليقين ماتهون على به مصائب الدنيا "فهذا صبر مستنده حسن اليقين"([4]).

وأرى أن في رد النبي (ﷺ) على المرأة لونا بلاغيا هو الأسلوب الحكيم وهذا الأسلوب يقوم على مراعاة مقتضى الحال بخروج الكلام من مقتضى الظاهر إذ هو تلقى المخاطب بغير ما يترقبه إما بترك سؤاله، والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنه كان

---

(١) تسلية أهل المصائب محمد المنبجى ص ١١٩.

(٢) الكوكب الوهاج ج١١ ص ١٢٢.

(٣) إحياء علوم الدين. الغزالي ج٤ ص ٧٢.

(٤) السابق والصفحة.

ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى([1])، فالأسلوب الحكيم "مرجعه إلى العدول في الجواب عن موجب الخطاب لحكمة شريفة يقتضيها المقام أو لنكتة لطيفة يرتضيها ذوو الأفهام"([2]) ، وفى هذا الحديث الشريف جاءت المرأة معتذرة لرسول الله (ﷺ) فترك الرد على كلامها وآثر غيره الأهم منه فأمر الاعتذار لم يشغل بال النبي (ﷺ) لأنه (ﷺ) لم يغضب لنفسه قط، ولذلك وجه النبي (ﷺ) المرأة لما هو أهم لها وهو ما ينبغي أن تكون عليه من صبر عند حلول المصيبة، ففى هذا الأسلوب "شئ من المفاجأة، وفيه أيضا شئ من الحكمة والتنبيه اللطيف على أن الأولى بمثل المخاطب أن يكون هذا المعنى مراده لا ماذكره"([3]).

فهذه الجملة التي لم تتجاوز خمس كلمات، فيها من المعاني الثرة، والحكم اللطيفة، ما يظهر براعة وبلاغة النبي (ﷺ) وأنه أوتى جوامع الكلم، فالجملة فيها إيجاز القصر حيث الألفاظ قليلة والمعاني كثيرة، وذلك"لتبلغ دعوته من أقرب السبل وآمنها من السأم، فكان إيجاز الكلام خصيصة لبيانه الكريم، حتى لا نرى إطنابا استدعاه مقام التقرير لم يمازجه ضرب من ضروب الإيجاز أو أكثر"([4]) ، ولذلك وجدنا سلطان العلماء يقول في أول سطور كتابه "الإشارة إلى الإيجاز": "الحمد لله الذي بعث نبينا (ﷺ) بجوامع الكلم، واختصر له الحديث

(١) علم البديع د/ عبد العزيز عتيق ص ١٧٥.
(٢) رسالة في بيان الأسلوب الحكيم ابن كمال باشا ص ٩١.
(٣) خصائص التراكيب ص ٢٧٠.
(٤) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/ عز الدين على السيد ص ٤٣٩.

اختصارا، ليكون أسرع إلى فهم الفاهمين وضبط الضابطين، وتناول المتناولين فكل كلمة يسيرة جمعت معاني كثيرة فهي من جوامع الكلم"(١).

فهذه الجملة الذكية المباركة، التي لانهاية لعطائها أصبحت مثلا من الأمثال وحكمة يتمثل بها تدور على الألسنة في مثل هذه المقامات، وقد أورد ابن معصوم هذا الحديث في باب إرسال المثل الذي جعله من لطائف أنواع البديع مما يحسن التمثيل به(٢).

والله أعلم

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.عز الدين بن عبد السلام ص٢.

(٢) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع. ابن معصوم المدني ج٢ ص ٥٩ وما بعها.

الحديث الخامس

التعزيــة بالدواء الحســي

- التلبينة -

عن عائشة زوج النبي (ﷺ) أنها كانت إذا مات الميت من أهلها، فاجتمع لذلك النساء ثم تفرقن إلا أهلها وخاصتها أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت ثــم صنع ثريد فصبت التلبينة عليها ثم قالت: كلن منها فإني ســمعت رســول الله (ﷺ) يقول:" التلبينة مجمة لفؤاد المريض تذهب بعض الحزن"(١) صدق رسول الله (ﷺ).

يدخل النبي (ﷺ) بتوجيهاته وآدابه على الهم والحزن من كل بــاب، فــلا تقتصر تسليته وتعزيته بالكلمات فقط وإنما يعالج النفس المكلومة بــشتى ألــوان العلاج ومنه العلاج المادي، فيصف للمحزون أكل التلبينة، وها هي أم المؤمنين عائشة تقتفى سنة النبي (ﷺ) فتوصى أهل الميت بأكلهــا لأنهــا تــريح قلــب المريض وتقوى نفسه فتذهب بعض حزنه، ولذلك استحب أهــل العلــم صــنع التلبينة للمحزون(٢).

وتروى أم المؤمنين عائشة عن رسول الله (ﷺ) قوله: "التلبينــة مجمــة لفؤاد المريض تذهب بعض الحزن"، و"التلبينة"، و"التلبين" حساء يعمل من دقيق أو نخالة وربما جعل معه عسل، وسميت به تشبيها باللبن لبياضها ورقتها(٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة باب التلبينة ج٧ ص ٧٥ رقم ٥٤ ١٧، وصحيح مسلم كتاب السلام. باب التلبينة مجمة لفؤاد المريض ج٤ ص ١٧٣٦ رقــم ٢٢١٦. واللفــظ لمسلم.

(٢) شرح صحيح مسلم النووي ج١٤ ص ٢٠٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ج٤ ص ٢٢٩.

وابتداء النبى (ﷺ) كلامه بهذه الكلمة "التلبينة" فيه من التنبيه للمخاطب ما فيه، مما يحقق توكيد المعنى وتحقيقه "فإن قلت: فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له..."، فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتي بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك، فإذا قلت: "عبد الله" فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا: "قام" أو قلت: "خرج"، أو قلت: "قدم" فقد علم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق، وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشئ بغتة غفلا مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له؛ لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام"(١).

وهذا الكلام بجملته ينسحب على النص النبوي الذي نحن بصدده، فابتداء النبي (ﷺ) بهذه الكلمة "التلبينة" يجعل المتلقي مشدودا للحديث الذي سيسند إليها فالنفوس قد تهيأت خاصة أن المخبر هنا هو رسول الله (ﷺ) الذي طالما أخبرهم بأسرار وأحوال لا علم لهم بها، فعندما يأتي المسند "مجمة" فينزل على المتلقي نزول الماء على ذي الغلة الصادي وهذا أدعى لتحقيقه وتأكيده في النفوس.

و "مجمة" تروى بفتح الميم والجيم وفتح الميم الأخرى المشددة "مجمة" وهذا هو المشهور، ويروى: "مجمة" بضم الميم وكسر الجيم، فعلى الأول يكون مصدرا، وعلى الثاني يكون اسم فاعل(٢).

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣٢.

(٢) ينظر: المفهم. القرطبي ج٥ ص ٦٠٧، وعمدة القاري ج١٤ ص ٤٢٢.

ومعنى "مَجَمَّة" أي راحة لقلب المريض([1])، ويقال: "أجم نفسك يوما أويومين أى أرحها، ومعنى "تجم الفؤاد" أي: تريحه وتكمل صلاحه ونشاطه([2]).

وعلى رواية "مجمة" يكون الأسلوب من قبيل المجاز العقلي لعلاقة المصدرية أي: التلبينة جمام لفؤاد المريض"([3]).

وسر بلاغة هذا المجاز المبالغة في وصف التلبينة بكونها مريحة فكأنها لكثرة إراحتها وإدخال الاستجمام على آكلها قد تجسدت من الراحة نفسها فصارت هي الحدث بذاته، وهى بهذا المعنى ليست سببا في الراحة وإنما هي مصدر الراحة ذاتها.

وعلى الرواية الأخرى: "مُجِمَّة" أي مريحة فتكون اسم فاعل من "أجم"([4]) ويكون الأسلوب مجازا عقليا علاقته السببية، دلالة على الأثر العظيم لهذا الدواء في إحداث الراحة لقلب المريض حتى غدا من شدة إعانته على ذلك كالفاعل له.

وقد أعلى الإمام عبد القاهر من قيمة هذا المجاز فقال: "وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحساس، والاتساع في طرق البيان، وأن يجئ بالكلام مطبوعا مصنوعا وأن يضعه بعيد المرام، قريبا من الإفهام"([5]).

وفى قوله "فؤاد المريض" مجاز مرسل علاقته الجزئية لأن الراحة للقلب والنفس وسائر البدن، والتعبير عن هذا العضو البشرى "بالفؤاد" خاصة دون

---

(١) ينظر: الكوكب الدراري في شرح صحيح البخاري الكرماني ج٢. ص ٤٣.

(٢) لسان العرب "جمم".

(٣) المفهم ج٥ ص ٦٠٧.

(٤) السابق والصفحة.

(٥) دلائل الإعجاز ص ٢٩٥.

غيره "كالقلب" مثلا؛لأن لفظ "الفؤاد" مناسب لمعنى الحديث، فلفظ "فأد" يدل في أصل اللغة على حمى وشدة حرارة، ومن ذلك: فأدت اللحم: شويته، وهذا فئيد أي: مشوي، وسمى الفؤاد فؤادا لتفؤده أي: توقده وشدة حرارته(١).

فالفؤاد ألطف ما في الجسد على الإطلاق، لذا عبر به عن جميع البدن، لأنه أشرف ما في البدن ولذلك عبر به في أشرف المواطن، قال تعالى: ﴿ ...فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ...﴿٣٧﴾ ﴾(إبراهيم: ٣٧)، وهو أشد تألما بأدنى أذى يمسه حتى قيل: إن الفؤاد سريع التأثر بما يفجأ الإنسان من الفزع والخوف فيموت الإنسان من ساعته، لذا يقترن الفؤاد فى القرآن بالفراغ والفضاء في مقام الفزع لسرعة تأثره بالمواقف قال تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ ...﴿١٠﴾ ﴾ (القصص: ١٠)، وقال تعالى: ﴿ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ ﴾ (إبراهيم: ٤٣)(٢).

فاستخدام لفظ "الفؤاد" هنا يناسب معاني المرض والحزن، فهذا "القلب" أحوج إلى ما في التلبينة من الراحة وإزالة الاكتئاب والهموم.

وقوله: "تذهب بعض الحزن" جملة خبريه فصلت عن الجملة قبلها لما بينهما من كمال الاتصال، لأن هذه الجملة بمنزلة التوكيد المعنوي للجملة الأولى، لأن التلبينة عندما تذهب الحزن فهي تدخل الراحة على القلب.

---

(١) ينظر: خلق الإنسان في اللغة. أبو محمد الحسن بن أحمد بن عبد الرحمن ص ٢٢٥، والمفردات في غريب القرآن ص ٣٦٨.

(٢) ينظر: دقائق الفروق اللغوية د/ محمد الدوري ص ١٠٧.

وفى إسناد الفعل "تذهب" إلى ضمير "التلبينة" يعد مجازا عقليا لعلاقة السببية، فهي سبب قوى وفعال في إذهاب الحزن.

ويبين القرطبي كيف أن التلبينة تعمل في الإنسان الراحة والسعادة فيذكر أنها غذاء فيه لطافة، سهل التناول على المريض، فإذا استعمله المريض اندفع عنه الحرارة الجوعية وحصلت له القوة الغذائية من غير مشقة تلحقه فيسرى عنه بعض ما كان فيه ونشط، وذهب عنه الضيق والحزن، الذي كان يجده بسبب المرض، وإنما كانت عائشة (رضي الله عنها) تصنعها لأهل الميت، وتثرد فيها لأن أهل الميت شغلهم الحزن عن الغذاء، فاشتدت حرارة أحشائهم من الجوع والحزن، فلما أطعمتهم التلبينة انكسرت عنهم حرارة الجوع فخف عنهم بعض ماكانوا فيه"(١).

ويقول ابن القيم: "وإن شئت أن تعرف فضل التلبينة فاعرف فضل ماء الشعير بل هي ماء الشعير فإنها حساء متخذ من دقيق الشعير بنخالته، والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يطبخ صحاحا، والتلبينة تطبخ منه مطحونا، وهى أنفع منه لخروج خاصية الشعير بالطحن.... وقوله (ﷺ): "تذهب بعض الحزن" هذا لأن الغم والحزن يبردان المزاج ويضعفان الحرارة الغريزية؛ لميل الروح الحامل لها على جهة القلب الذي هو منشؤها وهذا الحساء يقوى الحرارة الغريزية بزيادة في مادتها فتزيل أكثر ما عرض له من الغم والحزن، وقد يقال: إنها تذهب ببعض الحزن بخاصية فيها من جنس خواص الأغذية المفرحة فإن من الأغذية ما يفرح بالخاصية أو إن قوى الحزن تضعف باستيلاء اليبس على

(١) المفهم ج٥ ص ٦٠٧.

أعضائه وعلى معدته خاصة لتقليل الغذاء وهذا الحساء يرطبها ويقويها ويغذيها"([1]).

وتتفق كلمة العلم التجريبي الحديث مع ما ذكره الطبيب الأعظم والمعلم الأول سيدنا رسول الله (ﷺ) إذ أثبت العلم الحديث أن بعض المواد لها تأثير في تخفيف الاكتئاب كالبوتاسيوم والماغنسيوم، ومضادات الأكسدة، وغيرها وهذه المواد موجودة في الشعير، وفى حالة نقص البوتاسيوم يزداد شعور الإنسان بالاكتئاب والحزن، ويجعله سريع الغضب والانفعال والعصبية، وتشير الدراسات العلمية أن المعادن مثل البوتاسيون والماغنيسيوم لها تأثير على بعض الموصولات العصبية التي تساعد على التخفيف من حالات الاكتئاب، كما أن الدراسات العلمية تستخدم كلمة تخفيف من حالات الاكتئاب، وهذا نجد له في المقابل من حديث رسول الله (ﷺ): "تذهب بعض الحزن " فانظر إلى دقة تعبير رسول الله (ﷺ) الذي أوتى جوامع الكلم... وأخيرا فإن الأطباء النفسيين قديما كانوا يشخصون الأمراض النفسية على أساس التحليل النفسي ونظرياته ومع التقدم الهائل اليوم في الطب أصبح أطباء المخ والأعصاب يشخصون الاكتئاب على أنه خلل كيميائي وحديثا أثبتت الأبحاث أن استخدام الغذاء أفضل من الأدوية في علاج الحزن والاكتئاب حتى يكون العلاج آمنا من أي أضرار جانبية([2]) وقد سبقهم رسول الله (ﷺ) وقال: "**تذهب بعض الحزن**".

---

(١) زاد المعاد. ابن القيم ج٤ ص ١٠٩.

(٢) ينظر: في فضل التلبينة: العلاج بالتلبينة د/ عبد الكريم التوجري ص ١١ ومابعدها. والتلبينة غذاء ودواء. د/ رامي عبد الحسيب. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والتلبينة وصية نبوية وحقيقة علمية د/ صهباء بندق. موسوعة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم: ٣ – ٤).

أليس ذلك معجزة تستوجب الوقوف عندها والتأمل، ومراجعة حساباتنا في حياتنا كلها من غذاء ودواء ومعاملات وعبادات فنتأسى برسول الله (ﷺ) ونقتدي به، ونهتدي بهديه ونقتفي أثره ونتبع سنته، ونعمل بالشرع الحنيف نحل ما أحل، ونحرم ما حرم لننال سعادة الدارين؟!

والله أعلم

الفصـــل الثـــالث
بـــدع ومنـــكرات المآتـــم

أتى النبي (ﷺ) برسالته الخاتمة والناس فوضى، لهم عادات وتقاليد تتنافى مع آداب الإسلام، وكما له، وجلاله، وجماله، ومن هذه العادات المتأصلة في نفوسهم ندب الموتى، والعويل والصراخ عليهم، وظهر ذلك جليا عند المرأة استجابة لطبيعتها الوجدانية وتركيبتها النفسية بوصفها أكثر ميلا للحزن والأسى، على عكس الرجل الجاهلي الذي كان يرى في البكاء ضعفا وخورا، يقول المدائنى: "كانت العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثوبا ولايخشون عقابا يتحاضون على الصبر ويعرفون فضله، ويعيرون بالجزع أهله إيثارا للحزم وتزينا بالحلم وطلبا للمروءة، وفرارا من الاستكانة إلى حسن العزاء حتى إن الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يعرف ذلك فيه"(١) وكم تغنى الشعراء بصلابة قوتهم وجفاء مشاعرهم، فهذا المهلهل بن ربيعة يذكر أنهم لايبكون على أحد لغلظة أكبادهم مع أنهم من يبكى عليهم. يقول:

يبكى علينا ولا نبكى على أحد ** فلنحن أغلظ أكبادا من الإبل(٢)

فإظهار الحزن لم يكن مناسبا لرجال القبيلة.

أما النساء فقد أكثرن الندب والعويل حتى إنهن كن يتبارين في ذلك، فقد كان يشيع عند العرب ضرب من "التعديد" الذي نعرفه في مصر، فما تزال المرأة تنوح ويرد عليها صواحبها إلى سنين معدودات، ويقال: إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود، وكن يصنعن ذلك على القبر، وفى مجالس القبيلة والمواسم العظام(٣).

---

(١) التعازي. المدائني. ص٩٠.

(٢) شرح ديوان الحماسة. المزني ج٢ ص ١٥٢ ولم أعثر عليه في الديوان.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د/ شوقي ضيف ص ٢٠٧.

وكانت المرأة إذا مات زوجها حلقت رأسها وخمشت وجهها، وحمرت قطنة من دم نفسها، ووضعتها على رأسها وأخرجت قطنها من خرق قناعها لتعلم الناس أنها مصابة ويسمى ذلك السقاب([1]).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كانت النساء لا يستعملن طيبا ولايغسلن رؤوسهن، ويتجنبن لبس الملابس ذات الألوان الزاهية([2]).

فلما أشرقت الأرض بنور ربها، وجاءت رسالة السلام، أخذ الرسول (ﷺ) ينشر عطر الإيمان ويبطل هذه العادات، فزرع رسول الهدى (ﷺ) العقيدة الصحيحة السليمة في قلوبهم، فآسوا جراحهم ببلسم الرضا، وكان الصبر ظلتهم من وهج المصيبة وحرها؛ ولأن هذه العادات عميقة في النفوس، ضاربة بجذورها فى أعمال المجتمع الجاهلي، كثرت الأحاديث النبوية التي اجتثت هذه الأدواء وقضت عليها غير أن الناظر اليوم يجد هذه العادات قد أطلت بقوة مرة أخرى على مجتمع المسلمين، وهذا مما يحزن النفس، ويجعلنا أكثر حرصا على استلهام الهدى النبوي الذي يعالج هذه الأمراض، ويبطل هذه العادات، وفى هذه الصفحات نتناول بدع ومنكرات التعزية التي أبطلها الإسلام ونهى عنها:

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة. الأزهري ج٣ ص ١٧٠.

(٢) ينظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. الألوسي البغدادي ج٣ ص ١٣، وشعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية د/ مصطفى الشورى ص ٩٣، والقيم الروحية في الشعر العربي قديما وحديثا د/ ثريا عبد الفتاح ص ١٥٣.

الحديث الأول
حرمة النياحة

عن أبى مالك الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة "وقال: "النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب"(١) صدق رسول الله (ﷺ).

الإسلام دين الوسطية والاعتدال جعل للحزن متنفسا في البكاء فلم يؤاخذ الناس به، بل إن الرسول (ﷺ) بكى وتأثر وحزن، لكن في الوقت ذاته نهى عن الصراخ والعويل، وأكثر من يفعل ذلك النساء؛ لأن عواطفهن تغلب عقولهن وظهر منهن كثير من العادات التي تغضب الله (عز وجل) كشق الجيوب ولطم الخدود، والنياحة على الأموات حتى إن بعض النساء امتهن النياحة وتكسبن من ورائها؛ إذ كان الاعتقاد السائد أن كثرة البواكي دليل على وفاء أهل البيت للمتوفى، ومظهر من مظاهر معزتهم له، ورمز لقيمته عندهم نجد هذا المعنى عند أم سلمة (رضي الله عنها) فعندما مات زوجها أبو سلمة (رضي الله عنه) قالت: "لأبكينه بكاء يتحدث عنه"(٢) وحتى قال طرفة بن العبد:

فإن مت فانعينى بما أنا أهله ** وشقى على الجيب يا ابنة معبد(٣)

وجاء الإسلام فحارب هذه العادات بوسائل كثيرة منها الترغيب في الصبر والاحتساب، وتهيئة العقول لمعرفة حقيقة وجودهم وعلاقتهم بالخالق-سبحانه -،

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الجنائز. باب التشديد في النياحة ج٢ ص ٦٤٤ رقم ٩٣٤.

(٢) صحيح مسلم ج٢ ص ٦٣٤ رقم ٩٢٢.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص ٢٩.

ومنها ترهيبهم من هذه العادات فكان هذا النص النبوي زاجرا للنائحات، فحذر الأمة من خصال الجاهلية: الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب وربط المطر بالنجوم والنياحة على الميت، ووجه للنائحات تحذيرا خاصا فذكر أن النائحة التي تموت قبل توبتها تبعث يوم القيامة وهى تلبس ثيابا من قطران وقد أصابها الجرب.

وأول مانلاحظه فى طريقة بناء هذا البيان النبوي، هو وجود نظائر كثيرة له، فقد بدئت أحاديث كثيرة بالعدد وجاء المعدود متأخرا مثل:

- ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة..." (١)
- "أربع من كن فيه كان منافقا..." (٢)
- "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان..."(٣)
- "ثلاث إذا خرجن لاينفع نفسا إيمانها..."(٤)

ونجد تلك النظائر في ذات باب النياحة كما في قوله (ﷺ): "اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن فى النسب والنياحة على الميت"(٥).

وقوله: "ثلاث هي الكفر بالله: النياحة وشق الجيب، والطعن فى النسب"(٦)

فطريقة بناء المعاني على هذا النحو واضحة حتى إنها لتمثل ظاهرة في حديثه (ﷺ) ولعل التعليل لوجود هذا المنزع فى بيانه (ﷺ) هو مافيه من إثارة

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص ٥٦ رقم ١٠٦.

(٢) سنن أبى داود ج٤ ص ٢٢١ رقم ٤٦٨٨.

(٣) صحيح البخاري ج١ ص ١٣ رقم ٢١.

(٤) صحيح مسلم ج١ ص ٧٦ رقم ١٥٨.

(٥) السابق ج١ ص ٤٥ رقم ٦٧.

(٦) صحيح ابن حيان ج٧ ص ٤٥. رقم ٣١٦١.

وتشويق يقول ابن حجر: "والحكمة في الإجمال بالعدد قبل التفسير أن تتشوق النفس إلى التفصيل ثم تسكن إليه وأن يحصل حفظها للسامع، فإذا نسى شيئا من تفاصيلها طالب نفسه بالعدد، فإذا لم يستوف العدد الذي حفظه علم أنه قد فاته بعض ماسمع"(١).

ويقول العلامة الدسوقى: "إن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى مايرد بعد ذلك، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها بها أتم أو لتكمل اللذة بالعلم به، فإن الشئ إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى واللذة عقب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم"(٢).

فعندما يقرع الأذن العدد "أربع" دون ذكر المعدود تستشرف النفس معرفة هذا المعدود وتبلغ استثارة الذهن وتشويق النفس غايتها عندما تنسب هذه الأربع إلى فترة الجاهلية فالنفس تزداد تعلقا بمعرفة الأمور المعدودة خاصة أن النبي (ﷺ) أخبر أن هذه الأربع ستظل في أمته بالرغم من انتمائها إلى عهود الشرك والظلام، وبذلك تكون النفس في قمة التوقد والاستعداد لمعرفة تمام الخبر، وعندما يذكر النبي (ﷺ) هذه الأمور ويعددها فإنها تصادف نفسا قد تهيأت وأحسن تشويقها فيقع التحذير من هذه الأمور أتم ما يكون فبناء الأسلوب على

(١) فتح الباري ج١ ص ١٣٣.

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ج٣ ص ٢١٠.

هذا النمط نافذ إلى غرضه مصيب لقصده "ومن شأن المربى الصالح أن يبدأ خطابه الجليل الشأن باستنصات الناس واسترعاء أسماعهم، ويثنى باتخاذ الوسائل المشوقة التي تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة"(١) ولأجل هذا التشويق والابتداء البارع الداعي إلى الإصغاء كثرت التوجيهات النبوية المبدوءة بالعدد.

ومجئ العدد "أربع" ليس مفيدا الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى وإنما يقول النبي (ﷺ) ذلك من حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد، لأنه يقرب الفهم ويثبت الحفظ(٢).

و"أربع" نكرة، والأصل في المبتدأ أن يكون معرفة وقد يكون نكرة لكن بشرط أن يفيد، قال ابن مالك: "ولايجوز الابتداء بالنكرة مالم تفد: كعند زيد نمرة(٣).

وتحصل الإفادة بأمور فصلها النحاة(٤)، والمسوغ للابتداء بالنكرة في الحديث هو الإضافة المقدرة والتقدير: "أربع خصال".

وإذا كان المعول عليه في بلاغة الحذف هو الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر وبعث الفكر وتنشيط الخيال وترويق العبارة وتصفيتها، فإن ذلك يصدق على كل حذف بلاغي، ولذلك فإن البلاغة العالية تتلمس بجانب هذه الأغراض أغراضا أخرى تستقى من المقام، وأرى أن الداعي لحذف المضاف إليه واطراد ذلك فى كل الأحاديث المتشابهة هو الإغراق في الإبهام إذكاءً لداعي التشويق

---

(١) النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز ص ١٦١.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين. ج١. ص ٦٠١.

(٣) شرح ابن عقيل ج١ ص ١٣١.

(٤) شرح ابن عقيل ج١ ص ١٣١ إلى ص ١٣٧.

في نفس المتلقي، ومجئ حرف الظرفية والوعاء "في" يدل على شيوع هذه الأربع وانتشارها في الأمة.

وفى إضافة الأمة إلى ضمير رسول الله (ﷺ) تشريف لهذه الأمة وحث لها على تجنب هذه المنكرات، إذ كيف يقع في هذه الأمة المحمدية ما هو من أمر الجاهلية وشأنها، كما أن هذه الإضافة تدل على أن مرتكب هذه الأفعال وإن كان على ذنب عظيم إلا أنه لا يخرج عن الملة ولا يكفر.

"والجاهلية" زمن الفترة ولا إسلام، وهى الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله -سبحانه- ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك(١).

وقد سموا بذلك؛ لأن العرب في تلك الفترة كانوا على جهل عظيم، فجهلهم شامل للجهل في حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم ينصبون النصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يعير بها ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر إلى غير ذلك من أفعالهم الجاهلية، فالعرب قبل البعثة كانوا على جهل وضلال عظيم ولهذا يسمون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولايكتب، نسبة إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن لكن لما بعث فيهم هذا النبي الكريم قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾(آل عمران: ١٦٤).

(١) لسان العرب. "جهل".

والغرض من إضافة هذه الأمور إلى "الجاهلية" التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال: فعلك فعل الجاهلية لاشك أنه يغضب، إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية، فالغرض من الإضافة التنفير وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان إذ ليست أهلا بأن يراعيها الإنسان أو يعتني بها فالذي يعتني بها فهو جاهل([1]).

فنسبة هذه الأمور إلى الجاهلية كاف في تركها والابتعاد عنها؛ إذ إنها تنتمي إلى عهد الشرك والكفر والظلام، بعيدا عن نور الإسلام ومعرفة الواحد الديان، ومعاني الرضا والتسليم والإذعان، التي هي حال المسلم الحق في رحاب الإسلام، وهدى خير الأنام.

وجملة (لا يتركونهن) وهى جملة حالية تدل على "أن هذه الخصال تدوم في الأمة، لايتركونهن بأسرهم تركهم لغيرها من سنن الجاهلية فإنهن إن يتركهن طائفة جاءهن آخرون"([2]) وفى هذا الإخبار دليل على صدق النبوة المحمدية إذ حدثت هذه الأمور ونراها جهارا نهارا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والغرض من هذا الخبر يتجاوز حدود فائدة الخبر ولازمها، يقول التفتازانى: "كثيرا ماتورد الجملة الخبرية لأغراض سوى إفادة الحكم أو لازمه"([3]) ، فالنبي (ﷺ) يقصد التحذير من فعل هذه الأشياء وأنه ينبغي للمسلم أن يحذرها وألا يفعل شيئا منها، فشأن هذا الحديث شأن أحاديث أخرى أخبر

(١) ينظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ج١. ص ٦٠٤.

(٢) شرح الطيبي ج٤ ص ١٤١٨.

(٣) المطول. سعد الدين التفتازاني ص ٢٧.

فيها النبي (ﷺ) عن أمور منكرة تقع في الأمة يسوقها النبي (ﷺ) تحذيرا لأمته منها:" **لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع...** الحديث"([1]).

ثم أخذ النبي (ﷺ) يبين هذه الأربع بعد أن هيأ النفس وشوقها إلى معرفتها وهى: "الفخر في الأحساب" بتعداد الرجل من مآثره ومآثر الآباء و"الطعن في الأنساب" وهو أن يحقر آباء غيره ويعظم آباءه و"الاستسقاء بالنجوم" طلب السقيا، وتوقع الأمطار عند وقوع النجوم والأنواء([2]).

و"النياحة" ماكانت الجاهلية تفعل: كان النساء يقفن متقابلات يصحن ويحثين التراب على رؤوسهن ويضربن وجوههن([3]).

والجامع بين هذه العادات الأربع أنها مناقضة لما جاء به الإسلام كما أنها تدل على عدم معرفة الله (ﷻ) المعرفة الحقيقية تلك المعرفة التي لاتجعل العزة إلا بالله ورسوله فلا فخر بحسب ولا نسب.

وإذا عرف الإنساب ربه علم أنه القوى القدير المسيطر الذي ينشئ السحاب ويرسله فينزل خيره على من يشاء من عباده.

وإذا عرف الإنسان ربه رضى وسلم أمام كل المصائب فلا نوح ولاعويل بل الرضا بقضاء الله وقدره لأنه يعلم أنه لله وحده فليفعل المالك فى ملكه ما يشاء.

يجمع هذه الأمور أنها تصدر من نفس مظلمة لا تقدر الله – سبحانه – حق قدره؛ ولأن أمر النياحة يفشو في النساء أكثر خصهن بمزيد وعيد وتهديد فقال

---

(١) صحيح البخاري ج٣ ص ١٢٧٤ رقم ٣٤٥٦.

(٢) ينظر: شرح الطيبي ج٤ ص ١٤١٨.

(٣) شرح الأبي ج٣ ص ٧٣.

(ﷺ): "النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب".

فأمر النياحة من الأمور التي كانت ولازالت من عادات النساء إلا مارحم الله (ﷻ) ولذلك أخذ النبي (ﷺ) على المبايعات ألا ينحن فقد روى أبو داود عن امرأة من المبايعات قالت: "كان فيما أخذ علينا رسول الله (ﷺ) في المعروف الذى أخذ علينا: ألا نخمس وجها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيبا وألا ننشر شعرا"(١).

وهذا يدل على خطورة هذا الأمر وتنافيه مع العقيدة السليمة، ولذلك نبه (عليه السلام) على خطورة النياحة في تلك المرحلة المبكرة من الدعوة والمؤسسة للدولة.

وكأن النبي (ﷺ) يهيئهم لمرحلة الجهاد فى سبيل الله التي يبيع المسلم فيها نفسه وماله وأهله لربه، والناظر في مجتمع المدينة ومايحدث فيه من غزوات وفتوحات يعقبها تضحيات وقتل في سبيل الله، يجد أن بلسم الرضا والتسليم والإذعان كان يأسو هذه الجراحات، ولو لم يكن ذلك لأصبحت المدينة المنورة مأتما كبيرا تتبارى فيه النائحات ويسعد بعضهن البعض.

و"النائحة" هي التي تذكر الميت بأحسن أوصافه وأفعاله(٢) وذكر ابن حجر الهيثمي في الزواجر: "النوح" هو رفع الصوت بالندب ومثله إفراط رفعه

(١) سنن أبى داود ج٣ ص ١٩٣ رقم ٣١٣١.

(٢) ينظر: النهاية في غريب الأثر. ابن الأثير ج٥ ص ٣٤.

بالبكاء"([1])ووسع بعض أهل العلم معنى النياحة فجعل منها كل ما هيج المصيبة من وعظ أو إنشاء شعر وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية([2]).

فالنياحة هى إظهار الجزع والتسخط على موت الميت يقول القرافي: "وصورته: أن تقول النائحة لفظا يقتضى فرط جمال الميت وحسنه، وكمال شجاعته وبراعته، وأبهته، ورئاسته وتبالغ فيما كان يفعل من إكرام الضيف والضرب بالسيف، والذب عن الحريم والجار، إلى غير ذلك من صفات الميت التى يقتضى مثلها أن لا يموت، فإن بموته تنقطع هذه المصالح ويعز وجود مثل الموصوف بهذه الصفات، ويعظم التفجع على فقد مثله، وأن الحكمة كانت بقاءه، و تطويل عمره؛ لتكثر تلك المصالح في العالم، فمتى كان لفظها مشتملا على هذا كان حراما وهذا شرح النوح، وتارة لا تصل النائحة إلى هذه الغاية غير أنها تبعد السلوة عن أهل الميت، وتهيج الأسف عليهم فيؤدى ذلك إلى تعذيب نفوسهم وقلة صبرهم وضجرهم، وربما بعثهم ذلك على القنوط وشق الجيوب وضرب الخدود، فهذا أيضا حرام"([3]).

ومجئ أداة الشرط "إذا" التي تفيد تحقق وقوع الشرط يدل على أن النبي (ﷺ) يتشكك في توبة النائحة وأن المحقق عنده (ﷺ) هو عدم توبتها لفحش أفعالها؛ ولذلك كان الوعيد شديدا تهييجا وإلهابا لها على المسارعة في التوبة إلي الله (ﷻ).

ومعنى (قبل موتها) أي: قبل حضور موتها، وإنما قيد به ليعلم أن من شرط التوبة أن يتوب التائب وهو يأمل البقاء، ويتمكن من تأتى العمل الذي

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر.ابن حجر الهيثمي ج١ ص ٣٦١.

(٢) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف. على بن سليمان المرداوي ج٢ ص ٥٦٩.

(٣) الفروق المسمى أنوار البروق في أنواء الفروق. أبو العباس القرافي ج٢ ص١٧٢.

يتوب عليه(١)، ويؤيد هذا المعنى قولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (النساء ١٧ – ١٨).

وكذلك قوله (ﷺ): "إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر"(٢).

ونأتي إلى جملة جواب الشرط المتوعد بها وهى قولـــه (ﷺ) "تقـــام يـــوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب" والفعـــل "تقـــام" بـــصيغة المضارعة وبنائه لمن لم يسم فاعله، جاء ليؤدى دورا بليغا فـــي ســـياق هـــذا المشهد الغيبي الذي يخبر به الصادق المصدوق (ﷺ)، فقـــد أرانـــا المـــضارع صورة النائحة وقد أخذت أخذا وأقيمت في الموقف في ساحة العرض والحساب على رؤوس الأشهاد فضحا لها ومن أجل التركيز على هذا المشهد جاء الفعـــل "قام" مبنيا لمن لم يسم فاعله، فالغرض يتعلق بالحدث (تقام) ووقعه وأثـــره فـــي تصوير المشهد لتقع الأهوال في النفوس فلا مجال لظهور الفاعل فـــي المـــشهد حتى لا يشغل حيزا أو مساحة يحتاجها المشهد بجزئياته وخطوطه(٣).

---

(١) مرقاة المفاتيح. ج٤ ص ١٥٢٣.

(٢) سنن الترمذي ج٥ ص ٤٣٨ رقم ٣٥٣٧.

(٣) ينظر في هذه المعاني: الإعجاز البلاغي في استخدام الفعل المبنى للمجهول. د/ محمـــد السيد موسى. ص ١٧ ومابعدها.

وجاء ذكر القيد الزماني (يوم القيامة) تذكيرا بأهوال هذا اليوم وتعميقا للإحساس بهذه العقوبة التي تنتظر النائحة.

وجملة "وعليها سربال من قطران" جملة حالية أي أنها تقام على تلك الحالة بين أهل النار وأهل الموقف جزاء على قيامها في المناحة"(١).

ومعلوم أن (كل جملة وقعت حالا ثم اقتضت الواو فأنت مستأنف بها خبرا غير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في إثبات واحدا"(٢) ومعنى ذلك أن الجملة "تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران "فيها إثبات قيام النائحة يوم القيامة، ثم استؤنف خبر آخر وهو تسربلها بالقطران، فلما كان المعنى على استئناف خبر آخر احتيج إلى مايربط الجملة الثانية بالأولى فجئ بالواو كما جئ بها في قولك زيد منطلق وعمرو ذاهب، وتسميتها واو الحال لا تخرجها عن كونها مجتلبة لضم جملة إلى جملة.

"فوجود الواو في جملة الحال يشير إلى أن جملة الحال جملة مستأنفة ومبتدأ بها وتفيد معنى جديدا، فلهذا لزم الربط بينهما فكانت الواو"(٣).

وجاء تقديم الجار والمجرور "عليها" على المبتدأ "سربال" لتقوية الحكم وتأكيده في حق النائحة، وحرف الاستعلاء (على) يوحى بسيطرة وإحكام هذا السربال عليها والسربال هو القميص السابغ من أى جنس كان(٤)، والأصل في السربال إفادة الوقاية والحماية من الحر والبرد وإصابات السلاح، فلا هو لباس لستر العورة ولا هو ثياب للتزين أو التغطى بل هو لما ذكر من الوقاية

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ج٤ ص١٤٢٠.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢١٣.

(٣) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر د/ عبد الفتاح لاشين ص ١٢٨.

(٤) لسان العرب: "سربل".

والحماية قال تعالى: ﴿ ...وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (النحل: ٨١).

فعندما يقول الله (ﷻ) في شأن عذاب الكافرين: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (إبراهيم: ٥٠).

ويقول النبي (ﷺ) في جزاء النائحة "**وعليها سربال من قطران**" فإنما ورد ذلك على سبيل التنكيل بهم والزيادة في عذابهم قال ابن الهائم: "يجعل القطران لهم لباسا ليزيد فى حر جهنم فيكون ما يتوقى به العذاب عذابا"(١) وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿ ...وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ ...﴿٢٩﴾ ﴾ (الكهف: ٢٩) "والقطران" ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحره وحرارته، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فى اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح(٢).

فيجتمع للنائحة لذع القطران وحرقته، وإسراع النار فى جلدها، واللون الأسود، وفتق الريح، وهذا فى قطران الدنيا"على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ماوعده الله أو وعد به فى الآخرة، فبينه وبين مانشاهده من جنسه مالايقادر قدره، وكأنه ماعندنا منه إلا الأسامى والمسميات ثمة"(٣).

---

(١) التبيان فى تفسير غريب القرآن. شهاب الدين ابن الهائم ج١ ص ٢٠٤.

(٢) ينظر: لسان العرب (قطر) والكشاف. الزمخشرى ص ٥٥٧.

(٣) ينظر: الكشاف ص ٥٥٧.

والقطران لما كان قرين الجرب في الدنيا كان قرينه في عقاب الآخرة؛ فيضاف إلى هذه المرأة عقاب آخر وهو قوله (ﷺ): "**ودرع من جرب**"

والدرع هو "القميص"(١) يقول الطيبى: "أي يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطى جلدها تغطية الدرع فتطلى مواقعه بالقطران لتداوى، فيكون الدواء أدوى من الداء لا شتماله على لذع القطران وإسراع النار في الجلود"(٢).

فالنائحة يتعاقب عليها البلاء تلو البلاء، وماتظنه دواء تجده أشد ألما من الداء.

وإنما خصت النائحة بهذا العذاب "لأنها كانت تجرح بكلماتها المحرقة قلوب ذوات المصيبات، وتحك بها بواطنهن فعوقبت فى ذلك المعنى بما يماثله في الصورة، وخصت أيضا بسرابيل من قطران؛ لأنها كانت تلبس الثياب السود فى المآتم فألبسها الله تعالى السرابيل لتذوق وبال أمرها"(٣).

ويضاف إلى هذا المعنى، أن النائحة لم تغط مصيبتها بالصبر والرضا والتسليم وإنما جزعت وناحت، وعددت، وأسمعت الغادى والرائح، فكان جزاؤها فضحها يوم القيامة وإلباسها القطران والجرب ليكون الجزاء من جنس العمل.

وبذلك يكون النبي (ﷺ) في ترهيبه قد رسم صورة مفزعة لهذه النائحة تجعل النفس تقلع عن هذه العادة وتتوب راشدة إلى الله (ﷻ).

والله أعلم

---

(١) لسان العرب "درع".

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ج٤ ص ١٤٢١.

(٣) السابق والصفحة.

الحديث الثاني
صور من المنكرات عند حلول مصيبة الموت

عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) "ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية"(١). صدق رسول الله (ﷺ).

حرص الرسول (ﷺ) على حماية التوحيد وتنقيته من أي شائبه فبين (ﷺ) أنه ليس من سنته وهديه فعل هذه الخصال من لطم الخدود وشق الثياب والولولة والدعاء بالثبور، وغير ذلك من الكلام المحرم مما كان يجرى على ألسنة الجاهلية.

وبداية الحديث بداية ملفتة تسترعى الانتباه وتجذب وسائل الإدراك والتركيز لدى المتلقي فالنبي (ﷺ) يقول: "ليس منا" لاشك أن النفس قد اضطربت واهتزت وشغفت بكينونة المتحدث عنه الذي يفصله النبي (ﷺ) عنه وعن جماعة المسلمين.

فالابتداء بهذا النفى: "ليس منا"

فيه من الزجر ما فيه بل هو من أشد معاني الزجر، إذ كيف يقبل عاقل أن يفعل شيئا يبعده عن رسول الله (ﷺ) وعن المسلمين، من أجل هذا المعنى كثرت الأحاديث التي بدئت بنفس هذه البداية وكلها تنقى المسلمين من أي شائبة فى عقيدتهم أو عبادتهم أو أخلاقهم وسلوكهم ومعاملاتهم حتى تتركهم آدابه (ﷺ) على طريق الله المستقيم وتهديهم للتي هى أقوم، ومن هذه الأحاديث:

---

(١) صحيح البخاري. كتاب الجنائز. باب ليس منا من شق الجيوب ج٢ ص ٨١ رقم ١٢٩٤ وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب تحريم ضرب الخدود. ج١ ص ٥٥ رقم ١٠٣. واللفظ للبخاري.

- "ليس منا من تشبه بالرجال من النساء..."(١).
- "ليس منا من خبب على امرئ زوجها..."(٢).
- "ليس منا من دعا إلى عصبية... "(٣).
- "ليس منا من ســلق ومن حلق ومن خرق"(٤).
- "ليس منا من غش..." (٥).
- "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"(٦).
- "ليس منا من لم يرحم صغيرنا..."(٧).
- "ليس منا من حمل السلاح علينا"(٨).

وغير ذلك كثير من أحاديث الرسول (ﷺ).

ويلاحظ على هذه النصوص المتماثلة فى البناء والتركيب ما يلى:

١- أداة النفي (ليس).

٢- مجئ الخبر شبه جملة (جار ومجرور) "منا" مقدم.

٣- مجئ الاسم معرفة اسم موصول (من) مؤخر.

---

(١) مسند الإمام أحمد ج١١ ص ٩٢ رقم ٦٦٩٩.

(٢) مجمع الزوائد. العيثمى ج٤ ص ٣٣٥.

(٣) سنن أبى داود ج٤ ص ٣٣٢ رقم ٥١٢١.

(٤) سنن أبى داود ج٣ ص ١٩٤ رقم٣١٣٠.

(٥) سنن أبي داود ج٣ ص ٢٧٥ رقم ٣٤٥٢.

(٦) صحيح البخاري ج٩ ص ١٥٤ رقم ٧٥٢٧.

(٧) سنن الترمذي ج٤ ص ٣٢٢ رقم ١٩٢٠.

(٨) مجمع الزوائد ج٧ ص ٢٩٤.

وكل ذلك له دلالته البلاغية، فـ (ليس) وهى فعل ماض ناسخ ناقص تفيد نفى اتصاف اسمها بمعنى خبرها في زمن الحال بالأصالة، وفى غيره بالقرينة([1]) وهى في هذه الأحاديث تنفى الحال فالواقع في هذه الأمور ينفى النبي (ﷺ) عنه انتسابه إليه وإلى المسلمين أثناء خوضه في هذه الآثام، فالمعنى كما فى قوله (ﷺ): "لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن...."([2]).

وتقديم الجار والمجرور (منا) لمناسبة سياق الكلام؛ إذ الأسلوب قائم على الزجر والترهيب فتقديم "منا" وجعله مباشرا لأداة النفي (ليس) أوقع في النفس وأكثر تأثيرا وأغزر تشويقا بخلاف ما لو جاء الكلام على نسق (ليس من فعل كذا منا) فلا شك أن مزية الكلام تذهب وبريقه يخفت، وقد جرت عادة العرب كما يقول الزركشي: "على تقديم الأهم والأولى"([3]).

و"من" موصول يدل على من يعقل ولكونها مبهمة فإنها تؤدى معنى المفرد والمفردة والمثنى والجمع، ويفرق بين هذه المعاني الضمير العائد إليها([4]).

ومعنى قوله (ﷺ): "ليس منا" أي ليس على طريقتنا وسنتنا([5]) أو ليس متأسيا بسنتنا ولا مقتديا بنا ولامتمثلا لطريقتنا التي نحن عليها([6]).

---

(١) ينظر: مغنى اللبيب ج١ ص ٣٢٣ والجني الداني ص ٤٩٣، والنحو الوافي ج١ ص ٥٥٩.

(٢) صحيح البخاري ج٧ ص ١٠٤ رقم ٥٥٧٨.

(٣) البرهان: الزركشي ج٣ ص ٢٣٥.

(٤) ينظر: معاني الحروف. الزجاجي ص ١٨ ومغنى اللبيب ج١ ص ٧٠٠.

(٥) ينظر: فيض الباري شرح صحيح البخاري محمد أنور شاه الكشميريى ج٤ ص ٨٦.

(٦) ينظر: شرح صحيح البخاري. ابن بطال ج٥ ص ٣٠٧.

وفائدة إيراد هذا اللفظ "ليس منا" المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك(١) فليس المراد بهذا الإخراج عن الدين، وذكر ابن المنير فيما نقله عنه ابن حجر أن الأولى أن يقال: المراد أن الواقع في ذلك يكون قد تعرض لأن يهجر ويعرض عنه، فلايختلط بجماعة السنة تأديبا على استصحابه حالة الجاهلية التي قبحها الإسلام، وقيل المعنى:ليس على ديننا الكامل، أي أنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله(٢).

ويؤيد الكرماني أن فاعل هذه الأمور لا يخرج من هذه الأمة وأن النفي للتغليظ اللهم إلا أن يفسر دعوى الجاهلية بما يوجب الكفر نحو تحليل الحرام أو عدم التسليم لقضاء الله فحينئذ يكون النفي حقيقة(٣)؛ لأن المعاصي لا يكفر بها عند أهل السنة وإنما يكفر باعتقاد حلها(٤)، يقول ابن حجر: "فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلا بما وقع فلا مانع من حمل النفي على الإخراج من الدين(٥).

ومن أهل العلم من ذكر أن مثل هذه الأحاديث تمر كما جاءت ولا تفسر وأنها على التأكيد والتشديد، وقد سئل الإمام الزهري عن هذا الحديث: "ليس منا من لطم الخدود" وما أشبهه، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: "من الله (ﷻ) العلم وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم"، وكان الإمام سفيان الثوري يمتنع عن تأويل هذا الحديث ويقول: إن مثل هذا الحديث ينبغي أن يترك على ظاهره

---

(١) ينظر: التوشيح شرح الجامع الصحيح. السيوطي ج٣ ص ١٠٧٧.
(٢) ينظر: فتح الباري ج٣ ص ١٩٥.
(٣) الكواكب الدرارى شرح صحيح البخارى. الكرماني ج٧ ص ٨٨.
(٤) إرشاد الساري. القسطلانى ج٢ ص ٤٠٦.
(٥) فتح الباري ج٣ ص ١٩٥.

ولا يؤول، فإنه يخف منه الوعيد والمقصود زجر الناس عنه والتخفيف يخل به([1]).

فقوله "ليس منا" لا يخرج من الملة إلا على جهة الاستحلال إلا أن العلماء اختلفوا فى ضبط الدلالة – كما مر – فمنهم من حمله على التغليظ والمبالغة، ومنهم من تأوله على نفى الدين الكامل ومنهم من توقف إزكاءً لمعاني الزجر والوعيد، وقد رد أبوعبيد القاسم ابن سلام القول القائل بحمل الأسلوب على التغليظ بل ذكر أن أفظع ما تؤول على رسول الله (ﷺ) وأصحابه؛ أن جعلوا الخبر عن الله وعن دينه وعيدا، لا حقيقة له، وهذا يؤول إلى إبطال العقاب.

ويحمل أبو عبيد هذا الحديث، وأشباهه على أن المنفى هو الكمال الواجب الذي يعاقب تاركه فالذي عنده في هذا الباب كله أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيمانا ولا توجب كفرا، ولكنها إنما تنفى من الإيمان حقيقته وإخلاصه، فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها، قيل: ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الأمارات التي يعرف بها أنه الإيمان، فنفت عنهم حينئذ حقيقته ولم يزل عنهم اسمه "فإن قال قائل: كيف يجوز أن يقال: ليس بمؤمن، واسم الإيمان غير زائل عنه؟ قيل: هذا كلام العرب المستفيض عندنا غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته، ألا ترى أنهم يقولون للصانع إذا كان ليس بمحكم لعمله: ما صنعت شيئا ولا عملت عملا، وإنما وقع معناها ها هنا على نفى التجويد لا على الصنعة نفسها فهو عندهم عامل بالاسم، وغير عامل فى الإتقان"([2]).

---

(١) ينظر: السنة. الخلال ج٣ ص ٥٧٩، ومجموع الفتاوى ابن تيمية ج٧ ص ٦٧٤ ومسائل الإيمان. القاضي أبو يعلى ص ٣١٧.

(٢) الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته. أبو عبيد القاسم بن سلام ص٧٥ ومابعدها.

وهذا القول أخذ به القاضي أبو يعلى والمروزي، والنووي، وابن عبد البر وشيخ الإسلام ابن تيمية والسفاريني([1]).

وكل هذا يدل على خطورة اقتراف هذه الأمور وأنها محرمة في الإسلام إذ تؤثر على كمال الإيمان وتبعد المسلم عن حياض أهل التقوى، فهي كبيرة من الكبائر تجلب لصاحبها خسارة عظمى وبلية كبرى.

والسبب فى هذا التغليظ والتحريم ما تضمنه ذلك من عدم الرضا بالقضاء.

وأخذ النبى (ﷺ) يبين إبهام الموصول (من) فقال: "**لطم الخدود**"

اللطم: ضربك الخد وصفحة الجسد ببسط اليد، والضرب على الوجه بباطن الراحه، وفى مقاييس اللغة: اللام والطاء والميم أصل صحيح يدل على ملاصقة شئ لشئ بضرب أو غيره([2]). وفى رواية مسلم "ضرب الخدود" والضرب أعم من اللطم، واللطم أكثر خصوصية بضرب الوجه على النحو المعروف.

و "**الخد" في الوجه، والخدان:** جانبا الوجه وهما ماجاوزا مؤخر العين إلى منتهى الشدق([3])، "وإنما جمع وإن كان ليس للإنسان إلا خدان فقط، (على قول من يرى أن الجمع فوق الواحد، أو أن الإفراد فى فاعل "ضرب" مراعاة للفظ "من" والمعنى على الجمع، فكأنه قال: من ضربوا الخدود، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحادا فيؤول المعنى إلى من ضرب الخد، والمقصود من ضرب

---

(١) ينظر: مسائل الإيمان. القاضى أبو يعلى ص ٣١٩، وشرح النووى ج٢ ص٤١ وما بعدها، والتمهيد لابن عبد البر ج٩ ص ٢٤٣ وتعظيم قدر الصلاة. المروزى ج٢ ص ٥٣٥، ولوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية. محمد السفارينى الأثرى الحنبلى ج١ ص ٤١٦.

(٢) ينظر: لسان العرب (لطم) ومقاييس اللغة. ابن فارس ج٥ ص ٢٥٠.

(٣) ينظر: لسان العرب (خدد).

الخدود: لطم الإنسان خد نفسه على سبيل الهلع والجزع عند المصائب، فلا يشمل ضرب الإنسان خد غيره فهو من قبيل العام المخصوص بحكم العرف"(١).

وخص "الخد" لأن الغالب لطمها وإلا فضرب بقية الوجه داخل فى ذلك(٢) فيكون التعبير النبوي من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية حيث القصد إلى الكل.

والواو العاطفة فى قوله: "وشق الجيوب" وفى بقيه الحديث بمعنى "أو" يقول الإمام العينى: "قلت الأشياء الثلاثة مذكورة بالواو وهى لمطلق الجمع، قلت: "الواو" بمعنى "أو" والدليل عليه ما رواه مسلم:" ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية"، فإذا كانت روايتان إحداهما بـ "أو" والأخرى بـ "الواو" تحمل "الواو" على "أو"(٣) ، ومن أجل هذه الدلالة ترجم الإمام البخاري للباب بقوله: "ليس منا من شق الجيوب" دون أخويه تنبيها على أن النفي الذي حاصله التبري يقع بكل واحد من الثلاثة ولا يشترط فيه وقوعها معا(٤)، واختار شق الجيب دون غيره لأنه أشدها قبحا مع ما فيه من خسارة المال فى غير وجه(٥).

---

(١) فتح المنعم ج١ ص ٣٣٣.

(٢) التوشيح. السيوطى ج٣ ص ١٠٧٨.

(٣) عمد القارى ج٨ ص ٨٧.

(٤) ينظر: إرشاد السارى ج٢ ص ٤٠٦.

(٥) ينظر: عمدة القارى ج٨ ص ٨٧.

و"الجيوب" بضم الجيم جمع جيب من جابه أى قطعه، وكل مجوف قطعت وسطه فقد جبته، و"الجيب" مايفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس للبسه(١).

والمراد بشقه إكمال فتحه إلى آخره أو زيادتها على وجه الهلع والتسخط(٢).

وقوله (ﷺ): "**ودعا بدعوى الجاهلية**"

أى "دعا بدعوى أهل الجاهلية" و هو ما كانوا يفعلونه من النياحة وندبة الميت والدعاء بالويل والثبور وكقولهم: واجبلاه واويلاه واثبوراه(٣).

وهذه الثلاثة: "ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعوى الجاهلية" كما يقول: الدكتور موسى لاشين: "إنما قصد بها التمثيل لا الحصر؛ لأنها هي التي كانت شائعة في هذه البيئة حينئذ فيلحق بها ما يجرى في هذه الأيام في بعض البلاد من دهان الوجه بالنيلة واللون الأزرق، وخنق الرقبة بالثياب، والإمساك بطرفي الثوب بين اليدين والولولة به، ورفع التراب على الرأس ونحو ذلك من مظاهر السخط وعدم الرضا بالقضاء(٤).

ويؤكد الإمام الألبانى على هذا المعنى فيذكر أن شبيه تلك الأعمال مما يحدث في هذه الأيام كإعفاء بعض الرجال لحاهم أياما قليلة حزنا على الميت ثم يعودون إلى حلقها، مما يدخل فى الوعيد(٥).

---

(١) ينظر: لسان العرب (جوب).

(٢) فتح المنعم ج١ ص ٣٣٣.

(٣) ينظر: التوشيح ج٣ ص ١,٧٨ وفتح المنعم ج١ ص ٣٣٣.

(٤) فتح المنعم ج١ ص ٣٣٣.

(٥) ينظر: أحكام الجنائز. الألباني ج١ ص ٢٧.

والذي يؤكد على أن هذه الأعمال المذكورة إنما هي واردة على سبيل التمثيل لا الحصر أن النبي (ﷺ) ذكر غير هذه المظاهر مما يتنافى مع الإسلام عقيدة وأخلاقا وسلوكا، كما فى قوله (ﷺ) "ليس منا من حلق ومن سلق و من خرق"(١) والحالقة التى تحلق شعرها عند المصيبة والسالقة أو الصالقة لغتان وهى التي ترفع صوتها عند المصيبة(٢).

فهذه الأعمال كلها لن تغير القدر ولن تعيد المفقود وستكون عاقبتها وبالا على فاعلها؛ لأنها تخرجه من رحمة الله – تعالى – إلى عقابه وعلى المسلم أن يضع بين عينيه قوله (ﷺ): "ليس منا"، فهي كفيلة بردعه ورده، إن كان فى قلبه مثقال ذرة من حب الله (ﷻ) ورسوله (ﷺ)، لأنه بهذه الأفعال يعود منتسبا إلى زمن الجاهلية التي نسخها الله (ﷻ) بشريعة الإسلام وأمر بالاقتصاد فى الحزن والفرح وترك الغلو في ذلك، وحض على الصبر عند المصائب واحتساب أجرها على الله وتفويض الأمور كلها إليه، فحق على كل مسلم مؤمن علم سرعة الفناء ووشك الرحيل إلى دار البقاء ألا يحزن على فائت من الدنيا وأن يستشعر الصبر والرضا لينال الدرجات الرفيعة من ربه رزقنا الله الصبر والرضا إنه كريم وهاب.

والله أعلم

(١) سبق تخريجه ص١٤٦ من هذا البحث.

(٢) شرح النووى ج٢ ص ١٠٩.

الحديث الثالث
تحريم النياحة من وجه آخر

عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: لما مات أبو سلمة قلت: غريب وفي أرض غربة، لأبكينه بكاء يتحدث عنه، فكنت قد تهيأت للبكاء عليه، إذ أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدني فاستقبلها رسول الله (ﷺ) وقال: "أتريدين أن تدخلي الشيطان بيتا أخرجه الله منه؟" مرتين فكففت عن البكاء فلم أبك(١). صدق رسول الله (ﷺ).

صورة أخرى من صور تحريم النياحة ترتبط بحادثة بعينها، فأم سلمة (رضي الله عنها) حين مات زوجها أبو سلمة (رضي الله عنه) تتهيأ للصراخ والعويل، وأعدت العدة لاستقبال النادبة فاستقبلها رسول الله (ﷺ) ليحذرها من تلك الأفعال؛ لأنها تدخل الشيطان إلى بيت طهره الله (عز وجل) من رجزه وشره.

وقد بدأت أم سلمة الحديث بداية تؤجج الحزن وتلهب اللوعة، وتستنذرف الدمع إن الميت غريب بعيد عن أهله، لأنه مكي وكأنها بذلك تبرر بكاءها الهائل عليه، ولذلك حذفت المسند إليه "هو" ضيقا للمقام ومسارعة منها إلى ذكره بهذا الوصف إذكاء لمشاعر الأسى والحزن.

وتأكيدا منها على هذا المعنى جاءت بالجملة الحالية: "وفى أرض غربة"، وكل هذا تمهيد تسوقه (رضي الله عنها) تعليلا لقسمها فى قولها: "لأبكينه بكاء يتحدث عنه" وجاء تنكيرها لـ "بكاء" للتهويل والتكثير والتعظيم من شأنه، وإمعانا في تعظيمه جاءت جملة الصفة "يتحدث عنه" لأنه بكاء عظيم لم يعرفه الناس من قبل وجاء بناء الفعل "يتحدث" للمجهول إفادة للعموم، فكل ما يمكن منه الحديث

(١) صحيح مسلم كتاب الجنائز. باب البكاء على الميت. ج٢ ص ٦٣٤ رقم ٩٢٢.

سيتحدث عن هذا البكاء، فأهل الحضر والبادية والقريب والغريب، والصغير والكبير والرجال والنساء سيتحدثون عن هذا البكاء، ولو جئ بأي فاعل لخفت المعنى، وضاع المراد والجملة كلها كناية عن كثرة هذا البكاء وعظمته.

وقولها "فكنت قد تهيأت للبكاء عليه"

"الفاء" متصله بقولها: "قلت" في قولها: "لما مات أبو سلمة قلت.." أي قلت عقيب ما تهيأت للبكاء، ولا يجوز أن تتصل بالمقول إلا مع الواو ليكون حالا([1]).

وأم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) بالغة الدقة فى وصف الحدث وإظهار جزئياته وتفصيلاته فتقول:

"إذ أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدنى" و "إذ" الظرفية دلت على أن إقبال هذه المرأة إنما كان أثناء تهيئها لهذا البكاء، و"الصعيد" ما كان على وجه الأرض واستعمل فى الأرض البعيدة والمراد هنا عوالى المدينة([2]). وكأنها تقصد من ذلك بيان مدى حرص هذه المرأة على بكاء أبى سلمة (رضي الله عنه) إذ قصدت إليه من مكان بعيد.

وقد بينت هدف هذه المرأة من إقبالها فى قولها: "**تريد أن تسعدنى**"

و"الإسعاد" هو إسعاد النساء فى المناحات تقوم المرأة فتقوم معها أخرى من جاراتها إذا أصيبت إحداهن بمصيبة فيمن يعز عليها بكت حولا، وأسعدها على ذلك جاراتها وذوات قراباتها فيجتمعن معها فى عداد النياحة وأوقاتها ويتابعنها ويساعدنها مادامت تنوح عليه وتبكيه، فإذا أصيبت صواحبها بعد ذلك

---

(١) ينظر: شرح الطيبى ج٤ ص ١٤٢٧.

(٢) ينظر: فتح المنعم ج٤ ص ١٩٢.

بمصيبة أسعدتهن([1]). ولعل في إطلاق لفظ الإسعاد على هذا العمل ضرب من المخادعة والتلبيس على الناس كأنهن يعتقدون أن ذلك الإسعاد يخفف الأحزان ويهون الآلام فسموه باسم مأخوذ من السعادة خداعا لأنفسهم ولغيرهم.

وهذا الإسعاد كان شائعا عند العرب فى الجاهلية فها هي أم عطية تقول للنبي (ﷺ): "إن فلانة أسعدتني فأريد أن أسعدها"([2]) ، ولذلك جاء النهى صريحا عن هذا الإسعاد فيما رواه النسائي بسنده أن رسول الله (ﷺ) أخذ على النساء حين بايعهن أن لاينحن فقلن يا رسول الله إن نساء أسعدتنا في الجاهلية أفنسعدهن؟ فقال رسول الله (ﷺ): "لا إسعاد فى الإسلام"([3])وفرق بين تأسيس النهى عن فعل شئ ما إذ يكون الكلام على عمومه وشموله، دون تغليظ وتخويف، وبين النهى عن فعل شئ يقترف ويقارب ولذلك أخذ النهى عن الإسعاد صورة أخرى فى قوله (ﷺ):

"أتريدين أن تدخلي الشيطان بيتا أخرجه الله منه؟ فالعالم الخارجي الذي انبعث فيه هذا النص هو الذي جعل بنية النص اللغوية تتشكل على هذا النحو، فهناك حادثة موت وهو الزوج "أبو سلمة" وزوجة تستعد وتتهيأ للبكاء وامرأة أخرى نائحة جاءت لتؤدى واجبا اجتماعيا، فلا شك أن الأحداث ملتهبة، والإقدام على المعصية باد حاضر، فكان الحسم والقوة في اجتثاث هذا الداء العياء من خلال توظيف أسلوب الاستفهام "والميل إلى اعتماد الأسلوب الإنشائى المتمثل فى أسلوب الاستفهام يثمر عنه تفاعل بين طرفي الخطاب يتجسد في سرعة استجابة المتلقين، فالمتكلم يلجأ ألى توظيف هذا الأسلوب ليبعث في النص حياة

(١) ينظر: لسان العرب (سعد).

(٢) صحيح البخارى ج١ ص ٨. رقم ٧٢١٥.

(٣) سنن النسائى ج٤ ص ١٦ رقم ١٨٥٢.

وحركة ويمنحه أسباب القدرة على الإقناع والإمتاع فيستهوى المستمعين ويجعلهم أكثر تفاعلا مع الهدف المنشود"(١).

والاستفهام فى قوله (ﷺ): "أتريدين..."

استفهام إنكارى توبيخى، موجه إلى تلك الإرادة التى لا ينبغى أن تكون "أى لاينغى أن تدخليه، ولعله (ﷺ) علم ذلك من الوحى"(٢).

وفى إسناد الإدخال إلى هذه المرأة مجاز عقلى علاقته السببية فهى بأفعالها وعويلها تحضر الشياطين ورجزهم وزيادة فى التشنيع عليها جاء التعبير بـ "أن" المصدرية والفعل المضارع "تدخلى" وهما فى تأويل المصدر "الإدخال" وسر بلاغة التعبير بالفعل كامن فى استحضاره هذه الصورة إذ أرانا الفعل "تدخلى" المرأة وقد أخذت الشيطان من يده فأدخلته هذا البيت الطاهر، وهذا أشد وأنكى وأفظع وأدعى إلى عدم فعل ذلك، ولا شك أن كلمة (الشيطان) قد زادت من حدة الإنكار عليها، وقد اختلفوا فى اشتقاقه فقال قوم: إنه من شاط يشيط أى هلك، وقال قوم: إنه من شطن أى بعد سمى بذلك لبعده عن الحق(٣) وكل ذلك يراد، فالشيطان هو رمز لكل خبث ومعصية وهو اسم جامع لكل معانى الشر والآثام والفجور، فذكره هنا أدعى إلى اجتثاث هذه المعصية من نفوس النساء، لأنه يحمل أعلى قدر من التنفير والتقبيح، واذ كاءً لمعانى الإنكار والتنفير من اقتراف هذا الإثم (النياحة)، كان وصف هذا البيت بقوله: (ﷺ): "بيتا أخرجه الله منه" وكأن هذا البيت جنة طهرها الله (ﷻ) من رجز الشيطان،

---

(١) النص وجماليات المتلقى بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدى د/ عباس محمود. ١٢.

(٢) ينظر: فتح المنعم ج٤ ص ١٩٢.

(٣) ينظر: لسان العرب (شطن) والعباب الزاخر والباب الفاخر. الصغانى (شيط).

وجنة الله فى أرضه الإيمان والصلاة والذكر وسائر العبادات، فهذه المرأة لن تدخل الشيطان أى بيت، إنه بيت طاهر ينتشر فيه عبق العبادة ويشرق فيه نور الإيمان فلا شك أن الجرم حينئذ أفظع، والمعصية أشد، والحرمة أوجب.

وقول أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) فى نهاية روايتها للحديث: "مرتين" اختلف فى متعلقه، فذكر الطيبى أن المراد بالمرة الأولى يوم دخوله فى الإسلام والمرة الثانية يوم خروجه من الدنيا مسلما، أو أن يراد به التكرير أى أخرجه إخراجا بعد إخراج كقوله تعالى: "ثم ارجع البصر كرتين"(١) ، وذكر صاحب المرقاة أن المراد بالمرة الأولى يوم هاجر من مكة إلى الحبشة وبالمرة الثانية يوم هاجر إلى المدينة فإنه من ذوى الهجرتين(٢).

وهذا كله فيه نظر؛ لأن مبنى هذا الكلام على تعلق "مرتين" بالفعل: "أخرج"، وهذا بعيد، والقول قول الأبى: حيث قال: "مرتين" معمول القول أى فقال مرتين فليس الأمر متعلقا بعدد الإخراج(٣).

فـ "مرتين" متعلق بـ "قال" أى أن النبى (ﷺ) أعاد هذا الكلام مرة أخرى فيكون مجموع ماقاله (ﷺ) مرتين، والقول بالتكرار أقرب رحما إلى اقتضاء المقام، يقول ابن فارس: "ومن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"(٤).

---

(١) ينظر: شرح الطيبى ج٤ ص ١٤٢٧.

(٢) ينظر: مرقاة المفاتيح ج٣ ص ١٢٤٦.

(٣) شرح الأبى ج٣ ص ٦٦.

(٤) الصاحبى فى فقه اللغة. ص ٢٠٧.

والتكرار سمة بارزة فى أحاديث النبى (ﷺ) وقد أشار أنس بن مالك (رضي الله عنه) إلى هذا عندما وصف منطق رسول الله (ﷺ): حين قال:" كان رسول الله (ﷺ) إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا، وإذا سلم سلم ثلاثا"(١).

والنبى كرر أسلوب الاستفهام هنا لبيان أهمية ماذكر وتأكيدا على هذا الإنكار التوبيخى وذلك أبلغ فى الزجر والموعظة، يقول الخطابى: "إنما يحتاج إلى التكرار ويحسن استعماله فى الأمور المهمة التى قد تعظم العناية بها، ويخاف بترك التكرار وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها"(٢).

وداعية التكرار قائمة فى هذا الموقف؛ لأن النياحة من الخطورة بمكان، ولذلك كانت الاستجابة من أم المؤمنين سريعة جدا فلم تتأخر فى الامتثال لأمر النبى (ﷺ) حيث قالت: "فكففت عن البكاء فلم أبك"

وليس المراد من البكاء هنا دمع العين، إذ ليس ذلك من الشيطان، وإنما المراد مايصاحبه من صراخ وعويل(٣)، ويبدو أن أم المؤمنين قد احتاطت لحالها، فتركت ماهو مشروع لها، وهو البكاء من غير نوح خوفا من الوقوع فيما هو محظور خاصة أن الأسلوب النبوى كان شديد الأسر قوى الزجر بالغ الأثر، فقد هزهم هزا عنيفا يستطرد هذا الداء العياء وقد فعل.

والله أعلم

---

(١) صحيح البخارى ج١ ص ٣٠ رقم ٩٥.

(٢) ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٤٨.

(٣) ينظر: فتح المنعم ج ٤ ص ١٩٢.

الحديث الرابع
النهـــى عن النعـــي

عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "إيـــاكم والنعـــي، فإن النعى من عمل الجاهلية"(١). صدق رسول الله (ﷺ).

حتى يتسقيم فهم أسلوب التحذير يجب فهم المراد من (النعى) الـــوارد فـــى الحديث.

و "**النعي" فى اللغة كما يقول ابن فارس:** "النون والعين والحرف المعتـــل أصل صحيح يدل على إشاعة الشئ، ومنه: خبر الموت"(٢).

وفى لسان العرب: نعى الميت ينعاه نعيا ونعيا إذا أذاع موته وأخبر به وإذا ندبه(٣).

والنعى فى الاصطلاح لايختلف عن معناه اللغـــوى. وقـــد ذكـــر الفقهـــاء تعريفات للنعى لاتخرج فى مجملها عن المعنى اللغوى من حيث كونها الإشعار بموت الميت أو الإخبار أو النداء بالموت بأن ينادى فى الناس أن فلانـــا قـــد مـــات(٤)، والذى عليه الجمهور أن مطلق الإعـــلام بالموت جائز(٥).

---

(١) سنن الترمذى. كتاب الجنائز. باب ماجاء فى كراهية النعى. ج٣ ص ٣٠٣ رقم ٩٨٤، والترغيب والترهيب المنذرى. ج٤ ص ١٨٦ رقم ٥٣٦١.

(٢) معجم مقاييس اللغة. ابن فارس ج٢ ص ٥٦٨.

(٣) لسان العرب "نعى".

(٤) ينظر: حاشية ابن عابدين ج٢ ص ٢٣٩. المبدع فى شرح المقنع ج٢ ص ٢٢٣.

(٥) ينظر: تحفة الأحوذى ج٤ ص ٦٠.

بل قد يستحب النعى إذا كان مقصورا على إعلام الأهل والأصحاب وأهل الصلاح بموت الميت من غير نوح ولا منكر ليقضوا حقه فى تغسيله، وتكفينه والصلاة عليه وتشييعه، وهذا فيه تحريض للناس على الطاعة والاستعداد لها، فيكون من باب الإعانة على البر والتقوى والتسبب فى الخير والدلالة عليه(١).

أما النعى المنهى عنه هو ما كان عيه أهل الجاهلية من الدوران فى الأسواق والأزقة والطرقات والمجالس ومجامع الناس ونواديهم، فيقوم الناعى بذكر مآثر الميت ومفاخره ومناقبه(٢).

قال الإمام ابن الأثير (رحمه الله): "والمشهور أن العرب كانوا إذا مات منهم شريف أو قتل بعثوا راكبا إلى القبائل ينعاه إليهم، يقول: نعاء فلانا أو يانعاء العرب أى: هلك فلان أو هلكت العرب بموت فلان"(٣).

وقال ابن حجر (رحمه الله) موضحا نعى الجاهلية: "أنهم كانوا يرسلون من يعلن بخبر موت الميت على أبواب الدور والأسواق"(٤).

وعلى ذلك فالنعى المنهى عنه هو نعى أهل الجاهلية، فـ "أل" فى الجاهلية للعهد الذهنى أى النعى الذى كان معروفا فى الجاهلية.

ونستطيع أن نقول أن حكم النعى يتغير بتغير الغرض منه، لأن "الأمور بمقاصدها"(٥) فإذا كان القصد بالإعلام قضاء شؤون الميت والصلاة عليه فلا

---

(١) ينظر: المجموع ج٢ ص ١٧٤ والأذكار ص ١٦٥، وبدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع. الكاسانى ج١ ص ٢٩٩.

(٢) خلاصة الكلام شرح عمدة الكلام ج١ ص ١٢٥.

(٣) النهاية ج٥ ص ٨٦.

(٤) فتح البارى ج٣ ص ٤٥٣.

(٥) الأشباه والنظائر. تاج الدين السبكى. ج١ ص ١٢.

بأس به بل قد يكون مستحبا وواجبا، أما ما نراه اليوم من النعى فى الصحف، والمجلات، وإرسال السيارات هنا وهناك، لتعدد على الناس أقارب الميت ومراكزهم الاجتماعية ورتبهم ومناصبهم، فذلك كله من نعى الجاهلية، إذ فيه من المفاخرة ما فيه، وكذلك فيه تجسيد للقبلية المقيتة، وفيه – أيضا – بعد عن روح الإسلام، والاعتبار بالموت المفضى إلى الزهد فى الدنيا والتواضع لله (ﷻ)، وهذا هو النعى الذى حذر منه النبى (ﷺ) فى قوله: "**إياكم والنعى**"

وهذا أسلوب تحذير الغرض منه تنبيه المخاطب إلى كراهية النعى والحذر منه، ليبتعد المسلمون عنه، وقد كثر التحذير باستخدام ضمير الفصل (إياك) مخاطبا به الجمع فى الحديث النبوى ومنه قوله (ﷺ):

- "إياكم والكذب... الحديث"(١).
- "إياكم والجلوس على الطرقات..." (٢).
- "إياكم والحسد..."(٣).
- "إياكم والشح..."(٤).
- "إياكم وكثرة الحلف..."(٥).
- "إياكم والدخول على النساء..."(٦).

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠١٢ رقم ٢٦٠٧.
(٢) صحيح البخارى ج٥ ص ١١٢ رقم ٢٤٦٥.
(٣) سنن أبى داود ج ص رقم ٤٩٠٣.
(٤) سنن أبى داود ج ص رقم ١٦٩٨.
(٥) صحيح مسلم ج٣ ص ١٢٢٨ رقم ١٦٠٨.
(٦) صحيح البخارى ج٧ ص ٣٧ رقم ٥٢٣٢.

وغير ذلك كثير فى أحاديث النبى (ﷺ)، فهذه الصورة من التحذير هى الشائعة فى بيانه (ﷺ) حيث يؤتى بضمير النصب المنفصل "إياك" مفعولا به لفعل محذوف وجوبا، مخاطبا به الجمع معطوفا عليه المحذر منه.

وكثرة هذا الأسلوب فى البيان النبوي أمر طبيعي لرسالة تزكى وتطهر وتربى، وتتقى، وتعلم، وصاحب الرسالة هو نبى الرحمة الذى عز عليه شقاء أمته فدلهم على كل وجوه الخير ونهاهم عن كل أبواب الشر، فكان (ﷺ) حريصا على هداية أمته من الضلال وإنقاذهم من النيران، لأنه بأمته رؤوف رحيم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة: ١٢٨)، فرسالة هذه حالها ورسول كريم هذا حاله، ومجتمع جاهلى تشتمله الأباطيل فى كل شئ، كان من الطبيعى أن يكثر أسلوب التحذير فى بياه (ﷺ).

وبناء الأسلوب على هذا النحو فيه من البلاغة ما فيه فحذف الفعل يشعر باللهفة والمسارعة في ذكر المحذر منه وكأن الزمن يتقاصر عن ذكر المحذوف، كما أن بناء الأسلوب على هذا النحو فيه من التشويق وإثارة الانتباه مالا يتحقق فى غيره لو قيل مثلا: أحذركم النعى أو لاتنعوا موتاكم وغير ذلك، لأن " إياكم " نص فى التحذير بل هى اصطلاح عليه، ولذلك عندما تتلقاها النفس تعلم أن هناك أمرا سيحذر منه النبى (ﷺ) فتستيقظ كافة حواسها، وإدراكاتها العقلية لتلقى هذا التحذير، تمهيدا للامتثال له والابتعاد عما حذر منه النبى (ﷺ).

وعادة النبى (ﷺ) هى الإقناع بالحجة لذلك أتبعه هذا التعليل:

"فإن النعى من عمل الجاهلية"

وقد جاء هذا التعليل فى قالب مؤكد أتم التأكيد فـ "الفاء" إذا سبقت "إن" فإن الدلالة على التعليل تكون أقوى وآكد، وذلك لارتقاء رافدين من روافد العلية "الفاء" و"إن"، وكل منهما يمنح التعليل من دلالته الوضعية عنصرا دلاليا آخر غير الذى يعطيه الآخر له فالفاء تشرب التعليل معنى التعقيب مثلما تشرب "إن" التعليل معنى التوكيد فيجمع التعليل المنبعث من "فإن" معنيين: التعقيب والتوكيد"(١).

ومما زاد من التأكيد وتقرير المعنى وضع الظاهر موضع المضمر وهو نوع من الإطناب، مع أن مقتضى الاختصار في الكلام أن يعود الضمير على ظاهر قبله، لكن إذا وضع الظاهر موضع المضمر فإنما يكون ذلك لفائدة مهمة هو تقرير المعنى وتأكيده فى الذهن.

فكلمة (النعى) هنا قد تأتى ضميرا فيقال: "فإنه من عمل الجاهلية" كما جاء فى رواية أخرى(٢) لكن العدول إلى الاسم الظاهر جعل النعى آكد وألصق "بأعمال الجاهلية" زيادة فى تقرير وتمكين التحذير من (النعى) فى نفوس المسلمين.

وفى قوله "عمل الجاهلية" محذوف تقديره "أهل" فالعمل يكون من أهل الجاهلية وسر بلاغة الحذف تصفية العبارة وترويق الأسلوب من ألفاظ يفاد معناها بدونها لدلالة القرائن عليها، وهذا الاختصار وحذف فضول الألفاظ يجرى مجرى الأساس الذى بنيت عليه الأساليب البليغة، ولذلك نجد البلاغيين يذكرون من أغراض الحذف فى كل جزء من أجزاء الجملة الاختصار،

---

(١) ينظر: سبل الاستنباط من الكتاب والسنة. د/ محمود توفيق سعد. ص ٨٧.

(٢) الترغيب والترهيب. المنذرى ج٤ ص ١٣٦ رقم ٥٣٦١.

ويتبعونه بقولهم: "والاحتراز من العبث بناء على الظاهر"، وهى عبارة دقيقة وصادرة عن تفكير صادق، لأن ذكر الكلمة التى يدل عليها سياق الكلام ثقل، وترهل فى الأسلوب(١)، وبذلك يكون النبى (ﷺ) قد حذر من نعى الجاهلية بأوجز لفظ وأوفى معنى وهذا من سمات بلاغته النبوية الجامعة للقصد والاستيفاء.

والله أعلم

(١) ينظر: خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص ١٦٠.

الحـديث الخامس

تحريم العقـر

عـن أنـس بـن مالـك (رضي الله عنه) قـال: قـال رسـول الله (ﷺ): "لا عقر فى الإسلام"(١). صدق رسول الله (ﷺ)

كان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم يعقرون أى يذبحون عند قبر الميت، ويقولون كان صاحب القبر يعقرها للأضياف فى أيام حياته، فنحن نعقرها عند قبره، حتى تأكلها السباع والطيور، فيكون مطعما بعد وفاته، كما كان مطعما فى حياته، ومنهم من كان يذهب فى ذلك إلى أنه إذا عقرت راحلته عند قبره حشر يوم القيامة راكبا، ومن لم يعقر عنه حشر راجلا، وكان هذا على مذهب من يرى البعث منهم بعد الموت(٢).

وهذا الأمر وإن كان غير موجود فى مجتمعنا إلا أنه قد وقع ماهو شبيه به وقريب إليه يقول المنبجى فى تسلية أهل المصائب: "وأما هذه البدعة الخبيثة – يقصد العقر عند القبر – فهى موجود قريب منها فى غالب قرى البر، وهو أن الشخص الذى توفى فى بلده، فإن أهل القرى التى حوله يأتون لأجل العزاء فيذبحون لهم من مال الميت"(٣).

---

(١) سنن أبى داود. كتاب الجنائز. باب كراهية الذبح عند القبر ج٣ ص ٢١٦ رقم ٣٢٢٢ ومسند أحمد ج٢. ص ٣٣٣ رقم ١٣٠٣٢ والسنن الكبرى. الإمام البيهقى ج٤ ص ٩٤ رقم ٧٠٦٩.

(٢) ينظر: معالم السنن. الخطابى ج١ ص ٣١٥، وشرح السنة البغوى ج٥ ص ٤٦. وسبل السلام. الصنعانى ج١ ص ٥٠٨.

(٣) تسلية أهل المصائب. المنبجى ص ١٤٥.

فالناظر فى مجتمع المسلمين يرى أن المآتم قد تحولت إلى ولائم عرس، حيث يقوم أهل الميت بعمل سرادقات العزاء وذبح العجول واستقدام الطهاة، وغير ذلك من مظاهر المفاخرة، والرياء، وصار ذلك من الأعراف الدارجة التى أصبح الناس شديدى الحرص على المحافظة عليها، وذلك مخالف للسنة.

يقول الإمام الشافعى فى الأم: "وأحب لجيران الميت أو ذوى القرابة أن يعملوا لأهل الميت فى يوم يموت وليلته طعاما يشبعهم فإن ذلك سنة وذكر كريم، وهو من فعل أهل الخير قبلنا وبعدنا"(١).

وقد ورد أن النبى (ﷺ) لما استشهد جعفر بن أبى طالب قال لصحابته: "اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد أتاهم أمر يشغلهم أو أتاهم ما يشغلهم"(٢).

واتفق الفقهاء على أنه تكره الضيافة من أهل الميت؛ لأنها شرعت فى السرور لا الشرور وهى بدعة مستحدثه(٣).

ويؤكد على ذلك حديث جرير بن عبد الله قال: "كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة"(٤).

وقد جاء هذا النص النبوى قويا فى دلالته موجزا فى ألفاظه، غزيرا فى معناه ف"لا" هنا نافيه للجنس، وحكم النفى بها يستغرق جنس اسمها كله بغير احتمال، وتسمى (لا) التبرئة، لأنها تدل على تبرئة جنس اسمها كله من معنى الخبر(٥)، فهى تفيد المبالغة فى النفى وكأن امتداد الصوت فى النطق بها يحكى

---

(١) الأم. الشافعى. ج١ ص ٢٤٧.

(٢) سنن أبى داود. ج٢ ص ٥٩.

(٣) الموسوعة الفقهية ج١٦ ص ٤٤.

(٤) سنن ابن ماجة ج١ ص ٤٩٠.

(٥) ينظر: شرح الكافية. الرضي ج٢ ص ١٩٠.

امتداد هذا النفى وشموله يقول الرضي: "اعلم أن لا التبرئة إنما تعمل لمشابهتها إن ووجه المشابهة أن إن للمبالغة في الإثبات إذ معناهـا التحقيـق لا غيـرولا التبرئة للمبالغة في النفي لأنها لنفي الجنس فلما توغلتا في الطرفين أعنـي فـي النفي والإثبات فشابهتها فأعملت عملها"(١).

و"**العقر**" **فى الأصل:** ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم، حتـى تسقط فينحرها متمكنا منها لئلا تشرد عند النحر(٢).

وقال الأزهـرى: "العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ثم يجعل النحـر عقرا؛ لأن ناحر الإبل يعقرها ثم ينحرها(٣) وذكر الطاهر ابـن عاشـور أن العقر يطلق على قطع عضو الحيوان، وكانوا أى العرب يعقرون البعير بقطـع عضو منه حتى لا يستطيع الهروب عند النحر فلذلك أطلق العقر علـى النحـر على وجه الكناية(٤).

فالعقر هنا كناية عن الذبح فهناك تلازم بين مايدل عليه ظاهر اللفظ وبـين المعنى المراد منه.

واسم "لا" إذا كان مفردا جاء نكرة كما هو الحال هنا "عقر" لأن نفي الجنس على سبيل الاستغراق يستلزم وجود "من" لفظـا أو معنـى ولا يليـق ذلـك إلا بالأسماء النكرات، وهذا الاسم ركب مع "لا" تركيب خمسة عشر فاتحا له مـن غير تنوين وهذه الفتحة فتحة بناء، وإنما بني لتضمنه حرف الجر لأن قولنا: لا رجل في الدار مبني على جواب سؤال سائل محقق أو مقدر سأل فقال: هل من

---

(١) ينظر: مغنى اللبيب ج١ ص ٢٦٤.

(٢) ينظر: لسان العرب (عقر) والنهاية. ابن الأثير ج٣ ص ٢٧١.

(٣) تهذيب اللغة الأزهرى ج١ ص ١٤٥.

(٤) التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور ج٩ ص ٢٢٦.

رجل في الدار، ليكون الجواب مطابقا للسؤال إلا أنه لما جرى ذكر "من" في السؤال استغنى عنه في الجواب فحذف فقيل: لا رجل في الدار فتضمن "من" فبني على ذلك، وبني على الحركة إيذانا بعروض البناء وعلى الفتح لخفته(١).

ويزداد تأكيد النفي بتسلطه على المصدر خاصة مبالغة في نفي وجود الحدث زمنا وفاعلا وملابسات شتى، وقوله (ﷺ): "**في الإسلام**" يشير إلى أن بزوغ شمس الإسلام قد قضى على هذه العادة وأبطلها بالكلية فالحديث كله خبر بمعنى النهي أي لا تعقروا لأن ذلك يخالف تعاليم الإسلام، والنكتة البلاغية هنا هى الوثوق فى الامتثال لهذا النهى، فأخبر النبى (ﷺ) إخبار الشئ الحاصل الذى يخبر عنه، قال بعض الأصوليين: "لا" إذا كانت نافية أبلغ فى الخطاب من النهى؛ والنفى يتضمن الإخبار عن حالته وأنها كانت منفية فلم تكن ثابتة قبل ذلك"(٢).

فقد جاء النهى عن العقر الذى هو من بدع ومنكرات الجاهلية فى أبلغ صورة، وأتم معنى، وأوجز لفظ، ليقع هذا النهى موقعه فى نفوس المسلمين، فلا يملكون أمام جلال البيان، وروعة الأداء إلا التسليم والإذعان وصلى الله وسلم على خير الأنام ومسك الختام سيدى ومولاى ونور عينى محمد بن عبد الله.. اللهم آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) ينظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك. الأشموني ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها.

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه. بدرالدين الزركشي ج٢ ص ٣٧١ وما بعدها.

الخاتمة

الحمد لله حمدا يبلغ رضاه وأشهد ألا إلـــه إلا الله وأن محمـــدا رســـوله ومجتباه، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبـــين الطـــاهرين وعلى من سار على سنته وهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فقد عشت مع هذا الأدب العالى "أدب التعزية النبويـــة وبـــدع ومنكـــرات المآتم" قارئا ومتدبرا ومحللا على قدر طاقتى، فوقع فى قلبى وعقلى مالا يقـــدر لفظ على وصفه جلالة وروعة، وإبداعا، وجمالا، وقد خلصت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

١- ظهر فى هذا الأدب النبوى سمات التعبير النبوى من القصد والاستيفاء والإيجاز والشمول.

٢- إنسانية هذا الأدب فجزئيات النص غيـــر مرتبطـــة بالـــشخص بقـــدر ارتباطها بالحدث ذاته، ولذلك فهذه الأحاديث قادرة على معالجة هـــذا الحـــدث (التعزية) في كل عصر ومصر.

٣- تنوعت صور التعزية النبوية، فتارة تكون باللفظ، وأخرى من خـــلال التذكير بالجنة والنجاة من النار.

٤- جاءت الألفاظ مؤثرة وفعالة فى إيضاح المعنى وتقريره، ونقلـــه إلـــى أذهان المخاطبين فى صورة تتفق والغرض الذى سيق الكلام من أجله، وكانـــت الأفعال مادة وصياغة وبناء فى غاية الدقة و جمالية التعبير، وتمـــام الملاءمـــة للمقام والسياق خاصة أن هذا الأدب يحتاج إلى الذوق العالى والحس المرهـــف والمعالجة الهادئة حتى يحصل الهدف منه فكل لفظة يجب أن تكـــون مختـــارة بعناية تامة حتى لا يحصل النقيض.

٥- برز الإيجاز بنوعيه في هذا الأدب النبوى، تركيزا وتكثيفا للمعانى مراعاة لأحوال المعزين.

٦- توافر فى هذا الأدب الكثير من الأساليب الإنشائية خاصة الاستفهام وذلك لتنوع أغراضه وغزارة معانيه وقدرته على إبراز الدلالات الخفية التى تخدم المعنى، وكذلك برز فعل الأمر الذى خرج إلى الدعاء، وذلك راجع إلى طبيعة هذا الأدب الذى يشكل الدعاء للميت أو للمعزى ركنا أساسيا فى التعزية.

٧- كان التأكيد سمة ظاهرة من سمات هذا الأدب النبوى واتخذ صورا مختلفة فتارة يكون من خلال أسلوب القصر أو بـ"إن" والجملة الاسمية وذلك مراعاة لظروف المقام والسياق، خاصة أن المخاطبين بها ابتداء مكلومون وفى أمس الحاجة إلى هذه الكلمات المؤكدة التى تجتث أحزانهم وقرائحهم.

٨- استخدم فى هذا البيان النبوى أسلوب الشرط ترغيبا وترهيبا وذلك لما فيه من تشويق وإثارة لعقل المتلقى وهذا أدعى للإذعان والاستجابة.

٩- ظهر التشويق فى البيان النبوى أيضا من خلال ذكر العدد قبل المعدود وسمت الكلام النبوى قائم على ذكر المعنى أولا مجملا مبهما ثم يفصل بعد ذلك فلا تروى غلة المتلقى إلا مع آخر صوت فى كلامه (ﷺ).

١٠- جاءت بعض الأوامر والنواهى، فى هذا الأدب معللة بالفاء وإن (فإن) إظهارا للعلة فى أوكد صورة وذلك لما فيه من إقناع تام يسلم إلى الإذعان والانقياد.

١١- ندر فى هذا الأدب المحسنات البديعية، وما جاء منها وهو قليل جاء سمحا عفوا يتطلبه المعنى ويستدعيه.

١٢- لم يحفل هذا الأدب بالصور البيانية المركبة التى تحلق فى سماء الخيال، وذلك راجع إلى طبيعة هذا الأدب الذى يحتاج إلى الحقائق المجردة التى تلامس شغاف القلوب فتؤثر وتهدى.

هذا وقد خلص هذا البحث إلى توصيتين هما:

١- إنشاء كلية البيان النبوي يكون هدف هذه الكلية وشغلها الشاغل خدمة السنة النبوية من كافة جوانبها خاصة فى هذا الوقت الذى كثر فيه الطعن على السنة المشرفة.

٢- تدريس البلاغة النبوية وجعلها فى متناول الطلاب منذ مراحل تعليمهم المبكرة وفى ذلك حفظ لبلاغة رسول الله (ﷺ) وتربية لملكة الذوق المرهف، والإحساس العالى فى نفوس الناشئة.

وبعد

فإن أدب التعزية النبوية بكلماته وجمله وحواراته سيظل وكأنه يد النبى (ﷺ) تربت على كتف كل مكلوم فتأخذ بيده من نار المصيبة إلى جنة الرضا ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

وقد قلت بمقدار ما فهمت، وما شهدت يعلم الله – إلا بما علمت وحسبى حبى لرسول الله (ﷺ) واجتهادي قدر طاقتي وأسأل الله (ﷻ) العفو عن الزلل والتجاوز عن التقصير فهو – سبحانه – حسبى ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رضا السعيد فايد

غرة جمادى الآخر ١٤٣٧هـ

الفهـــــارس

١ـ فهرس الأحاديث النبوية
٢ـ فهرس المراجع
٣ـ فهرس الموضوعت

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة
• "أربع في أمتي من أمر الجاهلية..."	٣٢٧
• "أربع من كن فيه كان منافقا..."	٣٢٨
• "إن الروح إذا قبض تبعه البصر...."	٢٨٨
• "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر..."	٣٣٦
• "أوتيت جوامع الكلم"	٢٣٢
• "إياكم والجلوس على الطرقات"	٣٥٧
• "إياكم والحسد ...."	٢٥٧
• "إياكم والدخول على النساء..."	٣٥٧
• "إياكم والشـــــح....."	٣٥٧
• "إياكم وكثرة الحلـــــف..."	٣٥٧
• "إياكم والكـــــذب...."	٣٥٧
• "إياكم والنعـــــي...."	٣٥٥
• "اتقى الله واصبري...."	٣٠٥
• "التلبينة مجمة لفؤاد المريض...."	٣١٦
• "ثلاث إذا خرجن لا ينفع...."	٣٢٨
• "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان...."	٣٢٨
• "ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة...."	٣٢٨
• "ثلاث هي الكفر بالله ..."	٣٢٨
• "اثنان في الناس هما بهما كفر..."	٣٢٨

طرف الحديث	رقم الصفحة
• "اصنعوا لآل جعفر طعاما..."	٣٦٢
• "كان رسول الله (ﷺ) إذا تكلم بكلمة..."	٣٥٤
• "كان فيما أخذ علينا رسول الله (ﷺ) في المعروف..."	٣٣٤
• "كان نبي الله (ﷺ) إذا جلس يجلس إليه ...."	٢٧١
• "كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت....."	٣٦٢
• "لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر....."	٣٣٣
• "لا عقر في الإسلام ..."	٣٦١
• "لله ما أخذ وله ما أعطـــــى...."	٢٥٢
• "اللهم آت نفسي تقواها...."	٣٠٢
• "ليس منا من تشبه بالرجال من النساء...."	٣٤١
• "ليس منا من حمل السلاح علينا...."	٣٤١
• "ليس منا من خبب على امرئ زوجها...."	٣٤١
• "ليس منا من دعا إلى عصبية..."	٣٤١
• "ليس منا من سلق ومن حلق ومن خرق..."	٣٤١
• "ليس منا من غشنا..."	٣٤١
• "ليس منا من لم يتغـــن بالقرآن...."	٣٤١
• "ليس منا من لم يرحم صغيرنا..."	٣٤١
• "لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...."	٣٤٢
• "مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به..."	٢٢٩
• "مامن مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة ...."	٢٢٩

طرف الحديث	رقم الصفحة
• "مامن مسلم يشهد جنازة..."	٢٢٩
• "ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال...."	٢٢٩
• "ما من مؤمن يعزى أخاه..."	٢٣٣
• "مامن امرأة تقدم ثلاثا من الولد....."	٢٢٩
• "من عزى أخاه المؤمن في مصيبة...."	٢٤٤
• "من عــزى ثكلى....."	٣٠٦
• "من عــزى مصابا....."	٢٢٨
• "يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي...."	٢٤٦
• "يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له...."	٢١٧

المراجع والمصادر

١- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. ابن دقيق العيد مطبعة السنة المحمدية. بدون.

٢- أحكام الجنائز. الإمام الألبانى. المكتب الإسلامى ط الرابعة١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣- إحياء علوم الدين. أبوحامد الغزالى. دار المعرفة ـــ بيروت بدون.

٤- الأذكار. النووى. ت. الشيخ/ عبد القادر الأرنؤوط. دار الفكر - بيروت. لبنان ط١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٥- إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى. القسطلانى. دار صادر- الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ.

٦- إرواء الغليل فى تخريج أحاديث منار السبيل. الإمام الألبانى. المكتب الإسلامى. بيروت. ط الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٧- أسرار البلاغة. الإمام عبد القاهر الجرجانى. ت. الشيخ/ محمود شاكر. مطبعة المدنى. القاهرة. ط أولى ١٩٩١م.

٨- الأسلوب د/ أحمد الشايب. مكتبة النهضة. ط الثانية عشرة ٢٠٠٣م.

٩- أسماء الله الحسنى دراسة فى البنية والدلالة د/ أحمد مختار عمر عالم الكتب. ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٠- الأسماء والصفات. الإمام البيهقى. دار الكتب العلمية بيروت. بدون.

١١- الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز. عز الدين بن عبد السلام. ت. أ/محمد بن الحسن بن إسماعيل. دار الكتب العلمية. بيروت ط أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٢- الأشباه والنظائر. تاج الدين السبكى. دار الكتب العلمية. ط أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٣- الإصابة فى تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلانى. ت أ/ عادل عبد الموجود وأ/على محمد معوض. دار الكتب العلمية. بيروت. ط أولى ١٤١٥هـ.

١٤- الإعجاز البلاغى فى استخدام الفعل المبنى للمجهول. د/ محمد السيد موسى. بدون

١٥- إعجاز القرآن. الباقلانى. ت الشيخ/ السيد أحمد صقر. دار المعارف - مصر بدون.

١٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعى. دار الكتاب العربى. لبنان ط التاسعة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٧- إعراب القرآن الكريم وبيانه أ/ محى الدين درويش. دار ابن كثير. ط الثالثة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٨- الأم. الشافعى. دار المعرفة. بيروت. ط ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

١٩- الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف. على بن سليمان المرداوى ت. د/محمد حامد الفقى. مطبعة السنة المحمدية. ط أولى ١٢٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

٢٠ - أنوار البروق فى أنواع الفروق. أبو العباس القرافى. عالم الكتب بدون.

٢١- أنوار الربيع فى أنواع البديع. ابن معصوم المدنى. ت. أ/ شاكر هادى شكر مطبعة النعمان. النجف. ط ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٢٢- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. ابن هشام. ت. الشيخ/ يوسف البقاعى. دار الفكر للطباعة والنشر. بدون.

٢٣- الإيمان ومعالمه وسنته واستكماله ودرجاته. أبو عبيد القاسم ابن سلام ت. الإمام الألبانى. مكتبة المعارف. ط أولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠ م.

٢٤- بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع. أبو بكر الكاسانى. دار الكتب العلمية. ط الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٥- بدائع الفوائد. ابن قيم الجوزية. دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان. بدون.

٢٦- البرهان فى علوم القرآن. الزركشى. ت. أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. ط أولى ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٢٧- بغية الإيضاح. الشيخ/ عبد المتعال الصعيدى. مكتبة الآداب. ط السابعة عشر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٨- بلاغة الكلمة فى التعبير القرآنى. د/ فاضل السامرائى. شركة العاتط لصناعة الكتاب. ط الثانية ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٩- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب. الألوسى. ت. أ/ محمد بهجة الأثرى. دار الكتاب المصرى. بدون.

٣٠ - تأويل مشكل القرآن. ابن قتيبة. ت. أ/ إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت. لبنان. بدون.

٣١- تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د/ شوقى ضيف. دار المعارف بدون.

٣٢- التبيان فى تفسير غريب القرآن. شهاب الدين ابن الهائم ت. د/ ضاحى عبدالباقى محمد. دار الغرب الإسلامى. بيروت. ط أولى ١٤٢٣هـ.

٣٣- تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر. ابن أبى الإصبع ت. د/ حفنى محمد شرف. الجمهورية العربية المتحدة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامى.

٣٤- التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر. ط ١٩٨٤م.

٣٥- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى. المباركفورى. دار الكتب العلمية. بيروت

٣٦- تحفة المحتاج فى شرح المنهاج. ابن حجر الهيثمى. دار إحياء التراث العربى. بيروت. ط ١٣٥٧هـ/ ١٩٨٣م.

٣٧- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر. د/ عبد الفتاح لاشين. دار المريخ. الرياض. بدون.

٣٨- تسلية أهل المصائب. محمد المنبجى. دار الكتب العلمية بيروت. لبنان. ط الثانية.

٣٩- التصوير الفنى فى الحديث النبوى د/ محمد لطفى الصباغ. المكتب الإسلامى للطباعة والنشر. ط أولى ١٩٨٨م.

٤٠ – التعازى. أبو الحسن المدائنى. ت. أ/ إبراهيم صالح. دار البشائر. ط أولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤١- التعازى والمراثى. أبو العباس المبرد. ت. أ/ إبراهيم الجمل ومحمود سالم. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. بدون.

٤٢- تعظيم قدر الصلاة. محمد بن نصر المروزى. ت. أ/ عبد الرحمن بن عبدالجبار الفريوائى. مكتبة الدار بالمدينة المنورة. ط أولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٣- التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد. ابن عبد البر القرطبى ت. أ/ مصطفى بن أحمد العلوى. نشر وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية. المغرب نشر ١٣٨٧هـ.

٤٤- تهذيب اللغة. الأزهرى الهروى. ت. أ/ محمد عوض مرعى. دار إحياء التراث العربى. بيروت. ط أولى ٢٠٠١م.

٤٥- التوشيح شرح الجامع الصحيح. السيوطى. ت. أ/ رضوان جامع رضوان. مكتبة الرشد. الرياض. ط أولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٤٦- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن. الرمانى والخطابى والجرجانى ت. د/ محمد خلف الله، ود/ محمد زغلول سلام. دار المعارف. مصر ط الثالثة ١٩٧٦م.

٤٧- الجامع لأحكام القرآن. القرطبى. ت. أ/ أحمد البردونى وإبراهيم أطفين. دار الكتب المصرية. ط الثانية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٤٨- جلاء الأفهام فى فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ابن قيم الجوزية. ت. الشيخ/ زائر بن أحمد النشيرى. دار عالم الفوائد. ط أولى ١٤٢٥هـ.

٤٩- الجنى الدانى فى حروف المعانى. المرادى. ت. د/ فخر الدين قباوة وأ/محمد نديم فاضل. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٥٠ - حاشية ابن عابدين. ابن عابدين الدمشقى. دار الفكر. بيروت. ط الثانية ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٥١- حاشية الروض المربع شرح زاد المستنقع. ابن قاسم الحنبلى. ط أولى ١٣٩٧هـ

٥٢- حاشية السندى على سنن ابن ماجة. نور الدين السندى. دار الجيل. بيروت. بدون.

٥٣- الحديث النبوى: مصطلحه وبلاغته ومكانته د/ محمد لطفى الصباغ. المكتب الإسلامى. ط الرابعة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥٤- الحديث النبوى من الوجهة البلاغية د/ عز الدين على السيد. دار اقرأ. ط أولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٥٥- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى. مكتبة وهبة. ط الرابعة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٥٦- خلاصة الكلام شرح عمدة الأحكام. فيصل بن عبد العزيز الحريملى النجدى. ط الثانية. ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

٥٧- دلائل الإعجاز. الإمام عبد القاهر الجرجانى. ت. الشيخ/ محمود شاكر. مكتبة الخانجى. ط الخامسة ٢٠٠٤م.

٥٨- دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى. مكتبة وهبة ط الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م

٥٩- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج. السيوطى. ت. الشيخ/ أبو إسحق الحوينى. دار ابن عفان. المملكة العربية السعودية. ط أولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٦٠ - رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه. ابن قيم الجوزية. ت. د/ عبد الله بن محمد المديغر. دار عالم الفوائد. بدون.

٦١- الرسالة التبوكية "زاد المهاجر إلى ربه". ابن قيم الجوزية. ت. د/ محمد عزيز شمس. مجمع الفقه الإسلامى بجدة. بدون.

٦٢- رسالة المباحث المرضية. ابن هشام الأنصارى. ت. د/ مازن مبارك. دار ابن كثير. دمشق. ط أولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٦٣- رصف المبانى فى شرح حروف المعانى. المالقى. ت. أ/ أحمد الخراط. مطبوعات المجمع العلمى بدمشق. بدون.

٦٤- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى. الألوسى. ت. أ/ على عبدالبارى عطيه. دار الكتب العلمية. بيروت. ط أولى ١٤١٥هـ.

٦٥- الروض الباسم فى الزب عن سنة أبى القاسم. محمد بن إبراهيم الوزير. ت. أ/على بن محمد العمران. دار عالم الفوائد. بدون.

٦٦- رياض الصالحين. النووى. دار الريان للتراث. بدون.

٦٧- زاد المعاد فى هدى خير العباد. ت. الشيخ/ شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة. ط الثالثة. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٦٨- الزواجر عن اقتراف الكبائر. ابن حجر الهيثمى. دار الفكر ط أولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٦٩- سبل الاستنباط من الكتاب والسنة د/ محمود توفيق سعد. مكتبة وهبة ط أولى بدون.

٧٠ - سبل السلام. الصنعانى. دار الحديث. بدون.

٧١- سر الفصاحة. ابن سنان الخفاجى. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان ط أولى.

٧٢- السمات البلاغية فى البيان النبوى. د/ صباح عبيد دراز. مكتبة وهبة. ط أولى.

٧٣- سنن أبى داود. أبو داود السجستانى. ت. أ/ محمد محى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. صيدا بيروت.

٧٤- سنن ابن ماجة. ابن ماجة. ت. أ/ محمد فؤاد عبد الباقى. دار إحياء الكتب العربية. بدون.

٧٥- سنن الترمذى. أبو عيسى الترمذى. ت الشيخ/ أحمد محمد شاكروآخرين. نشر مكتبة عيسى البابى الحلبى. ط الثانية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٧٦- السنن الكبرى. البيهقى. ت أ/ محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط الثانية ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٧٧- سنن النسائى. ابن شعيب الخرسانى النسائى ت. أ/ عبد الفتاح أبو غرة. ط الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٩م.

٧٨- السنة. ابن يزيد الخلال. ت. أ/ عطية المزهرانى. دار الراية. الرياض ط١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م.

٧٩- شرح الأبى المسمى إكمال إكمال المعلم. الأبى، دار الكتب العلمية. بيروت بدون.

٨٠ - شرح أحاديث من صحيح مسلم د/ محمد أبو موسى. مكتبة وهبة. ط

٨١- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. ابن عقيل المصرى. دار التراث، القاهرة ط العشرون ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ م.

٨٢- شرح التسهيل. ابن مالك الأندلسى. ت. أ/ عبد الرحمن السيد ود/ محمد المختون. دار هجر. مصر. ط أولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

٨٣- شرح ديوان الحماسة. المرزوقى. ت. أ/ إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط أولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٨٤- شرح رياض الصالحين. ابن عثيمين. دار الوطن. الرياض. ط ١٤٢٦هـ.

٨٥- شرح سنن النسائى المسمى ذخيرة العقبى فى شرح المجتبى. محمد بن على بن آدم الأثيوبى الولوي. دار المعراج الدولية للنشر. ط ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٨٦- شرح السنة. الإمام البغوى. ت. الشيخ/ شعيب الأرناؤوط. المكتب الإسلامى ط الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٨٧- شرح صحيح البخارى. ابن بطال القرطبى. ت. أ/ ياسر بن إبراهيم وإبراهيم الصبيحى. مكتبة الرشد. الرياض. ط الثانية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٨٨- شرح صحيح مسلم. النووى. دار إحياء التراث العربى. بيروت ط الثانية ١٣٩٢هـ.

٨٩- شرح الطيبى على مشكاة المصابيح. شرف الدين الطيبى. ت. د/ عبد الحميد هنداوى. مكتبة نزار مصطفى البابى. الرياض ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٩٠ - شعب الإيمان. البيهقى. ت. د/ عبد العلى حامد مكتبة الرشد الرياض. ط أولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٩١- شعر الرثاء فى العصر الجاهلى. دراسة فنية. د/ مصطفى الشويرى. مكتبة ناشرون. لبنان ط أولى بدون.

٩٢- الصاحبى فى فقة اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب فى كلامها. ابن فارس مكتبة محمد على بيضون. ط أولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٩٣- صحيح ابن ماجة. الإمام الألبانى. مكتبة المعارف. ط أولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م

٩٤- صحيح البخارى. الإمام البخارى. ت. الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقى. دار طوق النجاة. الرياض. ط أولى ١٤٢٢هـ.

٩٥- صحيح مسلم. الإمام مسلم بن الحجاج. ت. الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقى. دار إحياء التراث العربى. بيروت. بدون.

٩٦- الصناعتين. أبو هلال العسكرى. ت. أ/ على محمد البجاوى وأ/ محمد أبوالفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. ط أولى ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٩٧- صيد الخاطر. أبو الفرج ابن الجوزى. ت. أ/ حسن سويدان. دار القلم. دمشق ط أولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٩٨- ضعيف سنن الترمذى. الإمام الألبانى. المكتب الإسلامى. بيروت. ط أولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٩٩- الطبقات الكبرى. ابن سعد. ت. أ/ محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية بيروت. ط الأولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م.

١٠٠ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحى بن حمزة العلوى. المكتبة العصرية. بيروت ط أولى ١٤٢٣هـ.

١٠١- فتاوى نور على الدري. الإمام عبد العزيز بن باز. ت. الشيخ/ عبد الله الطيار ومحمد بن موسى الموسى. مدار الوطن للنشر. بدون.

١٠٢- فتح البارى شرح صحيح البخارى. ابن حجر العسقلانى. دار المعرفة. بيروت ط ١٣٧٩م

١٠٣- فتح المنعم شرح صحيح مسلم. د/ موسى شاهين لاشين. دار الشروق. ط أولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

١٠٤- الفتوحات الربانية على الأذكار النووية. ابن علان. ت. أ/ عبد المنعم خليل إبراهيم. دار الكتب العلمية. ط أولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١٠٥- الفروق اللغوية. أبو هلال العسكرى. ت. أ/ محمد إبراهيم سلم. دار العلم والثقافة. بدون.

١٠٦- فقه بيان النبوة: منهجا وحركة د/ محمود توفيق سعد. مطبعة الأمانة ط أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٠٧- فن الأسجاع. د/ على الجندى. دار الفكر العربى. بدون.

١٠٨- الفن ومذاهبه فى النثر العربى. د/ شوقى ضيف. دار المعارف ط الثالثة عشرة

١٠٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير. المناوى. المكتبة التجارية الكبرى. مصر ط أولى ١٣٥٦م.

١١٠ - القاموس المحيط. الفيروز آبادى. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان. ط الثانية ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

١١١- قراءة النص وجماليات المتلقى بين المذاهب الغربية وتراثنا النقدى. د/ محمود عباس. دار الفكر العربى. ط الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١١٢- القيم الروحية فى الشعر العربى قديما وحديثا د/ ثريا عبد الفتاح. الشركة العالمية للكتاب. ط أولى ١٩٦٤م.

١١٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. الزمخشرى. دار الكتاب العربى. بيروت. ط الثالثة ١٤٠٧هـ.

١١٤- الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى. الكرمانى. دار إحياء التراث العربى. بيروت. لبنان. ط الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١١٥- الكوكب الوهاج والروض البهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج. محمد الأمين الأرمى العلوى الهررى الشافعى. ت. أ/ هاشم محمد على مهدى. دار الطوق النجاو. ط أولى.

١١٦- لسان العرب. ابن منظور الأنصارى. دار صادر بيروت. ط الثالثة ١٤١٤هـ

١١٧- اللغة واللون د/ أحمد مختار عمر. عالم الكتب. ط الثانية ١٩٩٧م.

١١٨- اللمع فى العربية. أبو الفتح ابن جنى. ت. أ/ فائز فارس. دار الكتب الثقافية الكويت.

١١٩- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية. محمد بن أحمد السفارينى الأثرى الحلبى. مؤسسة الخافقين. دمشق سنة النشر ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٢٠ - المبدع فى شرح المقنع. ابن مفلح. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٢١- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين ابن الأثير. ت. د/ أحمد الحوفى و د/ بدوى طبانة. دار نهضة مصر. القاهرة.

١٢٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. الهيثمى. مكتبة القدس. القاهرة. بدون.

١٢٣- المجموع شرح المهذب. الإمام النووى. دار الفكر. بدون.

١٢٤- مجموع الفتاوى. ابن تيمية. ت. أ/ عبد الرحمن بن محمد بن القاسم. مجمع الملك فهد. المدينة المنورة ط. ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٢٥- المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها أبو الفتح ابن جنى وزارة الأوقاف. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

١٢٦- المرض والكفارات. ابن أبى الدنيا. ت. أ/ عبد الوكيل الندرى. الدار السلفية بومباى أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٢٧- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. الملا على للقارى. دار الفكر. بيروت لبنان. ط أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠ ٢م.

١٢٨- مسائل الإيمان. القاضى أبو يعلى. ت د/ سعود الخلف. دار العاصمة. الرياض ط أولى ١٤١٠ هـ.

١٢٩- المستخرج على صحيح مسلم. أبو نعيم الأصفهانى ت. د/ محمد حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٣. - مسند الإمام أحمد. ت. الشيخ/ شعيب الأرناؤط وآخرين. مؤسسة الرسالة. ط أولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٣١- مسند الإمام البزار. ت. أ/ محفوظ الرحمن زيد الله وأخرين. مكتبة العلوم والحكم. ط أولى. بدون.

١٣٢- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية. ابن حجر العسقلانى ت. د/ سعد التشترى. دار العاصمة. الرياض. ط أولى ١٤١٩هـ.

١٣٣- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. سعد الدين التفتازانى ت. د/ عبد الحميد هنداوى. دار الكتب العلمية. لبنان. بدون.

١٣٤- معالم السنن. أبو سليمان الخطابى. المطبعة العلمية. حلب. ط الأولى ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

١٣٥- المعجم الأوسط. أبو القاسم الطبرانى. ت. د/ طارق عوض الله محمد وآخرين دار الحرمين. القاهرة. بدون.

١٣٦- المعجم الكبير. أبو القاسم الطبرانى. ت. د/ حمدى بن عبد المجيد السلفى مكتبة ابن تيمية. القاهرة. ط الثانية. بدون.

١٣٧- المغنى. ابن قدامة المقدسى. مكتبة القاهرة ط ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٣٨- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب. ابن هشام الأنصارى. ت. أ/ محمد محى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. لبنان. ط ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٣٩- المفردات فى غريب القرآن الأصفهانى ت. أ/ صفوان عدنان. دار القلم. دمشق ط الأولى ١٤١٢هـ.

١٤٠- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. أبو العباس القرطبى ت. ا/ محى الدين ديب وآخرين. دار ابن كثير. دمشق. ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٤١- مقاييس اللغة. ابن فارس. ت. أ/ عبد السلام هارون. دار الفكر. ط ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٤٢- المقتضب. محمد بن يزيد المبرد. ت. الشيخ/ محمد عبد الخالق عظيمة. عالم الكتب. بيروت.

١٤٣- من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم. د/ محمد الأمين الخضرى. مكتبة وهبة ط أولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

١٤٤-ـ من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم " الفاء" و " ثم " د/ محمد الأمين الحضرى. مكتبة وهبة. ط الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٤٥- من ميراث النبوة د/ إبراهيم داود ود/ محمود توفيق سعد. مطبعة الأمانة. بدون.

١٤٦- المنهل العذب المورود. شرح سنن الإمام أبى داود. الشيخ/ محمود محمد خطاب السبكى. مطبعة الاستقامة ط ١٣٥١هـ.

١٤٧- موسوعة الأحاديث. دار الأثار الضعيفة والموضوعة أ/ على حسن على وأخرين. مكتبة المعارف ط أولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٤٨- النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز. دار القلم. ط ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٤٩- نتائج الفكر. أبو القاسم السهيلى. ت. أ/ عادل عبد الموجود وآخرين. دار الكتب العلمية. لبنان ط أولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٥٠- النحو الوافى. أ/ عباس حسن. دار المعارف. القاهرة. ط الثالثة. بدون.

١٥١- النهاية فى غريب الحديث والأثر. ابن الأثير. ت. د/ محمود الطناحى وآخرين المكتبة العلمية. لبنان. ط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٥٢- نيل الأوطار. الشوكانى. ت. د/ عصام الدين الصبابطى. دار الحديث. القاهرة ط الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٥٣- يسألونك فى الدين والحياة. الشيخ/ أحمد الشرباصى. دار الجيل. القاهرة. ط أولى. بدون.

الرسائل العلمية

- الواو ومواقعها فى النظم القرآنى.

المجلات

- مجلة التراث العربى. الإمارات. العدد ٧. السنة الثامنة عشرة ١٩٩٨م.

- مجلة كلية اللغة العربية. إيتاى البارود. العدد السادس والعشرين ١٤٢٤هـ/٢٠١٣م.

- مجلة المقتطف. عدد يونيو ١٩٤٠م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمـــة	٢١٧
التمهيد	٢٢٠
الفصـــل الأول: الترغيب في التعزية	٢٢٥
الفصل الثاني: صـــور من أساليب النبي (ﷺ) في تعزيته	٢٤٩
الفصل الثالث: بدع ومنكرات المآتم	٣٢٣
الخاتمـــــة	٣٦٥
فهرس الأحاديث النبوية	٣٧١
ثبت المصادر والمراجـــع	٣٧٤
فهرس الموضوعات	٣٨٩